جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

بلاغة السبك في مواقف النِّفَّري

The eloquence of casting in Al-Nafri's situations

إعداد
أ.م.د. حمدي علي أبو المحاسن البهوي
أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنقد المساعد
بكلية اللغة العربية بالمنصورة ـ جامعة الأزهر ـ مصر

(العدد الثالث والأربعون)
(الإصدار الثالث-أغسطس)
(الجزء الرابع (١٤٤٦هـ /٢٠٢٤م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) 2536- 9083
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٢٤/٦٢٧١م

بـــــلاغة السبـــــك فـــــي مـــواقف النِّفَّـــري

حمدي علي أبوالحاسن البهوي

قسم البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بالمنصورة ، جامعة الأزهر، مصر

البريد الإلكتروني : *hamdyalbahwy.32@azhar.edu.eg*

الملخص

لا شك أن المعاني التي تتدفق بها نفس المتكلم، لا بد لها من سبك يشد أجزاءها، ويجمع شتاتها، حتى تستوي خلقًا نصيًا متماسك الأجزاء، فإذا ما ألقي في نفس المتلقي، كان أقرب للإمتاع الوجداني، والإقناع العقلي، فكان مؤثرًا في النفوس.

هذا، وقد جاءت دراستي هذه تحت عنوان: [بلاغة السبك في مواقف النفري]، إذ اختارت نماذج تمثل خصوصية السبك في مواقف النفري، وذلك على سبيل الاستقراء الناقص. واقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تخرج في مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وفهارس، وبيان ذلك كما يلي: المبحث الأول، وعنوانه: بلاغة السبك في مقام موقف العز. ثم المبحث الثاني، وعنوانه: بلاغة السبك في مقام موقف القرب. ثم المبحث الثالث، وعنوانه: بلاغة السبك في مقام موقف اقشعرار الجلود. ثم المبحث الرابع، وعنوانه: بلاغة السبك في مقام موقف الرحمانية. ثم الخاتمة، وفيها أهم نتائج البحث، ثم الفهارس. أما عن المنهج، فقد اتبعت هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي.

الكلمات المفتاحية : بلاغة ، السبك ، مواقف ، النفري.

The eloquence of casting in Al-Nafri's situations

Hamdi Ali Abu Al-Mahasin Al-Bahawi
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language, Mansoura, Al-Azhar University, Egypt

Email: *hamdyalbahwy.32@azhar.edu.eg*

Abstract:

There is no doubt that the meanings that flow from the speaker's soul must have a casting that tightens its parts and gathers its fragments, until it becomes a coherent textual creation. If it is cast in the recipient's soul, it is closer to emotional enjoyment and rational persuasion, and thus it is influential on the souls.

This, and my study came under the title: [The Rhetoric of Casting in Al-Nafri's Positions], as it chose models that represent the specificity of casting in Al-Nafri's positions, by way of incomplete induction. The nature of this study required that it come out in an introduction, a preface, four chapters, a conclusion, and indexes, and the explanation of that is as follows: The first chapter, and its title: The Rhetoric of Casting in the Position of the Position of Honor. Then the second chapter, and its title: The Rhetoric of Casting in the Position of the Position of Closeness. Then the third chapter, and its title: The Rhetoric of Casting in the Position of the Skeezing of Skins. Then the fourth chapter, and its title: The Rhetoric of Casting in the Position of the Position of Mercy. Then the conclusion, which includes the most important results of the research, then the indexes. As for the methodology, this study followed the descriptive analytical methodology.

Keywords: *Rhetoric , Al-Sabk , Attitudes , Al-Nafari.*

مقدمـــــــــة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ،

وبعد:

فإن الروح سر من أسرار الله ـ تعالى ـ في خلقه، ولكل روح عالمها، فهناك أرواح تشرق وتتجلى وترقى إلى الدرجات العليّة، والرتب الشذية، فتتحلى بالأنس بجناب الحق ـ تعالى ـ، وهناك في ذلك العالم الأثيث بالأنوار، المحفوف بالأسرار، تجد النفس لذتها، وتدرك ضالتها، وعندئذٍ تنساب من فيوضات صاحب تلك الروح الراقية في معارج الوصول قلائد الكلمات، وفرائد العبارات، فتسمع كلامًا ليس كسائر الكلام، إنه بيان روحي، حديث الميلاد، سيق من فراديس المعاني، بلغة يظللها غصن وريف من عالم الروح، إنه كلام قريب العهد من الله ـ تعالى ـ يتحدَّر من سماوات الحكمة العالية.

ومن اليسير على الإنسان أن يصوغ ما تراه عيناه وتسمعه أذناه، بينما يصعب عليه كتابة ما يدركه بروحه وقلبه وفؤاده، ولعل هذا ما حدا بالنفري إلى القول بعبارته الخالدة: "إذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة" فاتساع الرؤية يجعل العبارة ضيقة عاجزة عن النهوض بالمعاني، التي تتزاحم على النفس التي ارتقت في معارج الوصول، وأي عبارة تلك التي تنهض بالوفاء بحق المعاني الروحية؟!

ولا شك أن الآداب التي تُكتب على هذا النسق الفريد، لها من الخَصوصيات البلاغية والسمات البيانية ما يجعلها عالَمًا وحدها ونسيجًا بذاتها؛ فهي نمط صعب فريد لا نكاد نراه إلا عند قلة من مسطري الآداب.

ومن هؤلاء الذين صفت نفوسهم، وأشرقت أرواحهم حتى ارتقت في معارج الوصول، فتبوأت من بساط الأنس مقعدًا؛ محمد بن عبدالجبار النِّفَّري، ذلك الأديب الصوفي، الذي جالس تلاميذه، ففاضت روحه بين أيديهم بشآبيب التجليات، التي

تدفقت من مُزْن الأنس بلذائذ القرب، فأثمرت تجربة صوفية فريدة.

هذا، وقد عشتُ بين ظهراني مواقف النِّفري حينًا من الوقت، أتذوق لذائذها، وأتنسم أعباقها، وأتأمل بنيانها، فوجدت أن السبك خصيصة بلاغية بارزة في تلك المواقف، حتى إن القارئ لمواقف النفري ليجد نفسه ماضيًا في رحلة القراءة بلا توقف، حتى يجد نفسه على المرفأ الآخر للكتاب، وما ذلك إلا للسبك الجيد الذي ظلل المواقف، فالقارئ لتلك المواقف تستلفته تلك الوشائج التي تشد وَثاق بنى الكلام، وتجعل بعضه آخذًا بعناق بعض، فإذا ما أُلقى في نفس المتلقي كان كالكل المجتمع والشيء الواحد.

وهكذا أتت عبارات النفري في سبك محكم متشابك الأفنان، ينادي أوله على آخره، وآخره على أوله، ولقوة ذلك السبك وإحكام وثاقه، لا تستطيع أن تنزع من عباراته جملة ولا كلمة ولا حرفًا، وذلك سمت الكلام الجيد، الذي يخلد في التراث الأدبي الرفيع.

ولا شك أن المعاني التي تتدفق بها نفس المتكلم، لا بد لها من سبك يشد أجزاءها، ويجمع شتاتها، حتى تستوي خلقًا نصيًا متماسك الأجزاء، فإذا ما ألقي في نفس المتلقي، كان أقرب للإمتاع الوجداني، والإقناع العقلي.

هذا، وقد دفعني **لاختيار هذا الموضوع** أمور، أهمها:

- جِدَّة الموضوع، فلم أقف على أي دراسة بلاغية تناولت موضوع هذا البحث فيما أعلم.
- إبراز دور السبك في أداء معاني المواقف، وبيان تأثيره على نفوس المتلقين إمتاعًا وإقناعًا.

- الوقوف على الخَصوصيات البلاغية التي حققت السبك، والتي اعتبرها النفري في مواقفه؛ لأداء معانيه التي ترددت في مطاوي نفسه.

أما عن **الدراسات السابقة**: فلم أقف على أي دراسة بلاغية تناولت هذا الموضوع، فيما انتهى إليه بحثي.

وتكمن **مشكلة البحث** في: أن مواقف النفري اعتبر فيها صاحبها خَصوصية السبك، فأتى كلامه آخذًا بعناق بعض، فعباراته كالكل المجتمع، وجمله كالأفنان المتشابكة، كما عمَّت كلامه روابط شدَّت وثاق بناه التركيبية. ومن هنا كان هذا العمل؛ ليبحث عن الأسرار الكامنة وراء اعتبار تلك الخَصوصية.

وتهدف الدراسة الإجابة عن أسئلة، لعل أهمها: ما المقامات التي اعتبر فيها النفري خصوصية السبك؟ وما أثر اعتبار خصوصية السبك في أداء المعاني التي فاضت به نفس النفري؟ وما أهمية اعتبار خصوصية السبك في إمتاع وإقناع المتلقي؟ وما الوسائل البلاغية التي اعتمد عليها النفري في سبك مباني مواقفه؟

هذا، وقد جاءت دراستي هذه تحت عنوان: (بلاغة السبك في مواقف النفري)، إذ اختارت نماذج تمثل خصوصية السبك في مواقف النفري، وذلك على سبيل الاستقراء الناقص.

واقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تخرج في مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وفهارس، وبيان ذلك كما يلي:

المقدمة، وفيها: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، ومشكلة البحث، وأهدافه، وكيفية تقسيمه، والمنهج المتبع في دراسته.

ثم **المبحث الأول**، وعنوانه: بلاغة السبك في مقام موقف العز.

ثم **المبحث الثاني**، وعنوانه: بلاغة السبك في مقام موقف القرب.

ثم **المبحث الثالث**، وعنوانه: بلاغة السبك في مقام موقف اقشعرار الجلود.

ثم **المبحث الرابع**، وعنوانه: بلاغة السبك في مقام موقف الرحمانية.

ثم **الخاتمة**، وفيها أهم نتائج البحث، ثم الفهارس.

أما عن المنهج، فقد اتبعت هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي.

هذا، وأسأل الله ـ تعالى ـ أن يتقبل هذا الجهد خدمةً للغة كتابه الكريم، وأن يكتبه لي في الميزان يوم العرض الأكبر بين يديه ـ تعالى ـ، اللهم آمين.

تمهيـــــد
النِّفَّري، وكتابه، وتحرير المصطلح

أولًا: نبذة عن النِّفَّري(١):

اسمه ونسبه ومولده:

هو: أبو عبدالله محمد بن عبد الجبار بن الحسن النِّفَّرِي . بِكَسْر أَوله، وَفتح الْفَاء الْمُشَدّدَة، وَكسر الرَّاء . عالم بالدين، متصوف. نسبته إلى بلدة: (نِفَّر) وهي بالعراق، بين الكوفة والبصرة.

علمـــه وتصوفه:

النفري رجل صفت نفسه، وتجلَّت روحه، وعلت مواجيده، حتى تبوأ مرتبة عليا بين المتصوفة، وقد أتت آثاره تشهد له بالسبق والتفرد، حيث يُعد النفري رمزًا من رموز التصوف، وعَلَمًا من أعلامه، وله مسلك يقوم على الانفصال عما سوى الله . تعالى . لشهود الحق جل جلاله. وهو صاحب: (المواقف) و(المخاطبات) وكلاهما في التصوف. وتؤكد المصادر التاريخية: أن محمد بن عبدالجبار النفري لم يكتب بنفسه كتاب: "المواقف والمخاطبات"، إنما كتبها سبطه، من خلال تلك القُصاصات التي

---

(١) ينظر: الأعلام، للزركلي، (٦/١٨٤)، ط دار العلم للملايين، الخامسة عشر، ١٤٣١هـ.
توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، لابن ناصر الدين، تح/ محمد نعيم العرقسوسي، (٩/ ١٠٧) مؤسسة الرسالة – بيروت، الأولى، ١٩٩٣م.
شرح مواقف النفري، للتلمساني، تح/ جمال المرزوقي، (ص٢٠وما بعدها)، مركز المحروسة، ط١، ١٩٩٧م. شرح مواقف النفري، للتلمساني، تح/ د.عاصم إبراهيم الكيالي، (ص٥ وما بعدها)، دار الكتب العلمية . بيروت، ط الأولى،٢٠٠٧م. معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، (١٠/ ١٢٥)، مكتبة المثنى – بيروت، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٣١هـ.

دونها الشيخ لتجلياته، فالشيخ رجل استعذب العيش في رحاب الله ـ تعالى ـ حيث ذاق لذائذ القرب من ربه، فاشتغل بطاعة الله ـ تعالى ـ وانشغل به ـ سبحانه ـ عما سواه، ومن هنا لم يكتب بنفسه "المواقف والمخاطبات."

وفاتـــه:

بعد حياة حافلة بالعيش الوريف في ظلال الأنس بالحق ـ تعالى ـ توفي الشيخ، عام ٣٥٤هـ، في إحدى قرى مصر.

ثانياً: كتابه:

هو كتاب في فن النثر، موضوعه الحكم والمواعظ، وهي لون أدبي، إذ الأدب "مجموعة الآثار البشرية المعبَّر عنها بأسلوب فني، تحمل في قلبها صورة للحياة بمختلف مركباتها ومظاهرها."(١)

هذا، وقد كُتب الكتاب بلغة روحية خاصَّة، تُقرأ في إطار سياقات فكرية وتاريخية معينة؛ حتى ينهلَّ مزنها الدافق بشآبيب المعاني الروحية والإيمانية المترعة بتجارب فريدة، لا نراها إلا عند أولئك الذين أنار الله قلوبهم، إنها لغة تنهل مدرارة من سماوات ذلك العالم الروحي، الأثيث بوارف مظاهر الأنس بجناب الحق، بعيدًا عن عالم السُوى، وحدود الكون، تحليقًا في عالم الأنوار والأسرار. يقول د/ مصطفى محمود: "وحينما يقرأ القارئ...قول النفري: (قال لي ربي)، أو (أوقفني ربي بين يديه، وقال)، أو (خاطبني ربي)، أو (قال الله سبحانه)، فلا يجب أن ينصرف ذهنه إلى دعوى نبوة؛ فالرجل كان أكمل من أن يدعي لنفسه نبوة، ولم يزعم أن جبريل نزل عليه، وهو ملتزم بالقرآن حرفًا ومعنىً، وبسنة محمد سلوكًا واتباعًا، وإنما هي لغة صوفية؛ تعبيرًا

---

(١) الصورة الشعرية، ساسين عساف، (ص١٠)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـ بيروت، ط١، ١٩٨٢م.

عما يُلقى في قلوبهم من الحقائق في لحظات الصفاء الكامل، فبدلًا من أن يقول الواحد منهم: (أُلقيت في قلبي هذه الحقيقة)، أو (انقدح في ذهني هذا الخاطر)، يقول: (قال لي ربي)؛ إيمانًا منه بأن نبع الحقيقة وملهمها هو الله وحده."[١]

هذا، وقد أتت المعاني التي تدفقت بها نفس النفري في لغة خاصة، إنها تتجاوز الدلالات المعجمية الوضعية؛ لتحلق في آفاق جديدة، إنها صبغ روحي خاص، تدفقت به نفس ألفت العيش في ظلال الحق، فعبرت عما استقر في أنحائها، فأسلوب النفري موغل في الرمزية، يخرج بنا عن اللسان المعتاد، وعن المنطق المألوف.[٢]

وقد طبع الكتاب بتحقيق/ أرثر يوحنا أربري، وقد طبع بمطبعة دار الكتب المصرية عام ١٩٣٤م، ونشر بمكتبة المتنبي بالقاهرة.

والكتاب عبارة عن مجلد واحد، يقع في خمسمائة وأربع وعشرين صفحة من القطع المتوسط، ويتضمن النص بالعربية، كما يتضمن النص مترجمًا للغة الإنجليزية.

ثالثاً: تحرير المصطلح:

جاء في لسان العرب: "سَبَكَ الذهب والفضة ونحوهما من الذائب يسبُكه ويسْبِكه سَبْكًا، وسَبَّكَه: ذَوَّبَهُ وأفرغَهُ في قالَب، والسبيكة: القطعة المذوَّبَة منه"[٣].

ويقول صاحب مقاييس اللغة: "السين والباء والكاف: أصل يدل على التناهي في إمهاء الشيء، من ذلك: سبكتُ الفضة وغيرها أسبكها سبكًا."[٤] فالمادة ـ كما

---

(١) رأيت الله، د/ مصطفى محمود، (ص١٨)، ط دار المعارف ـ القاهرة، بدون تاريخ.

(٢) ينظر: شرح مواقف النفري، للتلمساني، تح/ جمال المرزوقي، (ص٢١).

(٣) لسان العرب، لابن منظور، تح/ عبد الله الكبير وأصحابه، ط دار المعارف، بدون تاريخ، مادة (سبك).

(٤) مقاييس اللغة، لابن فارس، تح/ عبد السلام هارون، ط دار الفكر، ١٩٧٩م، مادة: (سبك).

نرى . يدور معناها حول: التداخل الشديد، الذي من خلاله تذوب العناصر؛ لتصير شيئًا واحدًا، وكلًّا مجتمعًا، يستتبعه تماسك وترابط. فلفظة السبك تدل على شدة التماسك؛ فالسبيكة ناتجة عن تذويب عناصر المعدن على حرارة معينة، حتى تتداخل عناصر المعدن فلا تجد تفككًا. فإذا نقلنا معني السبك إلى التركيب العربي المتماسك العرى، نلمح تركيبًا ذابت لبناته المفردة في الجملة، فلا تجد لبنة تشذ، فاللبنات كلها قد ذابت في البناء بحرارة العاطفة، وتوقّد المشاعر، وقدرة الأديب على نسج اللبنات على منوال جيد.

يقول الجاحظ: "وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ واحدًا، وسبك سبكًا واحدًا"[١] ويقول: "المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير."[٢]

هذا، وقد ترددت على ألسنة سدنة البلاغة والنقد مصطلحات قريبة الصلة من السبك، من ذلك: "النظم" و"البناء". والحقيقة: أن هذه المصطلحات بينها رحم من الدلالة، ولكن لكلٍ منها دلالته التي تميزه عن غيره، ويتضح ذلك من خلال الماهية الجامعة المانعة لكل منها. أما عن النظم، فمعناه في اللغة "التأليف، نَظَمَهُ يَنْظِمه نَظْمًا ونِظامًا، ونظَّمه فانتظم وتنظم، ونظمت اللؤلؤ، أي: جمعته في السَّلْك"[٣]. فالمادة كما نرى، تدور حول: التأليف والجمع بطريقة تُخرِجُ المنظوم في هيئة بديعة.

---

(١) البيان والتبيين، للجاحظ، (١/ ٧٥)، دار ومكتبة الهلال – بيروت، ١٤٢٣هـ.

(٢) الحيوان، للجاحظ، تح/ عبد السلام هارون، (١٣٢/٣)، ط دار الجيل – بيروت، ١٩٩٦م.

(٣) لسان العرب، لابن منظور، تح/ عبد الله الكبير وأصحابه، ط دار المعارف، بدون تاريخ، مادة (نظم).

وعن مادة: (بنى) يقول صاحب أساس البلاغة: "يقال: بنى بيتًا أحسن بناء وبنيان، وهذا بناء حسن، وبنيان حسن، ويقال : بناؤك من أحسن الأبنية، ويقال بنى كلامًا وشعرًا، وهذا كلام حسن المباني."[١] فالزمخشري يشير إلى أن مادة: (بنى) تستخدم في بناء الكلام شعرًا ونثرًا، كما يشير إلى أن الكلام قد يوصف بأنه حسن المباني.

وأرى: أن المصطلحات الثلاثة قريبة الصلة في دلالتها، فبين دلالاتها رحم تؤلف بينها، إلا أنه لا يمكن التسليم بترادفها؛ فلكل منها دلالته المميزة، فثمة فروق لغوية بين تلك المصطلحات.

والحقيقة: أن مصطلح السبك يدل في أصل وضعه اللغوي على ذلك السبك الحسي الذي يتم في المعادن، وهو يدل على شدة التداخل والإمعاء والتماسك؛ فالسبيكة ناتجة عن تذويب عناصر المعادن الثمينة على حرارة معينة؛ حتى تتداخل عناصره، فلا تجد استقلالًا لعنصر منها، فإذا نقلنا معني السبك إلى ذلك الاستعمال المعنوي الذي يتم داخل النص، نراه يدل على نص ذابت لبناته المفردة في الجملة، وجمله في النص، فلا تجد إلا تماسكًا، فاللبنات كلها قد ذابت في البناء بحرارة العاطفة، وتوقّد المشاعر، وقدرة الأديب على نسج اللبنات على منوال جيد، وعندئذ ترى الكلام بعضه آخذًا بعناق بعض، بل إنه كالشيء الواحد والكل المجتمع، فإذا ما ألقى في النفس كان قادرًا على التأثير في المتلقي إقناعًا وإمتاعًا.

يقول الإمام عبد القاهر: "واعلمْ أنَّ ممَّا هو أَصلٌ في أنَ يدِقَّ النظرُ، ويَغْمُضَ المَسْلكُ، في توخِّي المعاني التي عرفتَ: أنْ تتَّحِدَ أجزاءُ الكلامِ ويَدخلَ بعضُها في

(١) أساس البلاغة، للزمخشري، تح/ محمد باسل، دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى، ١٩٩٨م، مادة: (بنى).

بعضٍ، ويشتدَّ ارتباطُ ثانٍ منها بأول، وأن تحتاج في الجِملة إلى أن تضَعَها في النفس وضعًا واحدًا."[١]

فالإمام عبد القاهر الجرجاني يشير هنا إلى: اتحاد أجزاء الكلام، ودخول بعضها في بعض، واشتداد ارتباط ثانٍ منها بأول. وهذا وصف دقيق لما يكون في خَصوصية السبك التي يعتبرها المتكلم مع ما يؤدي به أصل المراد، والذي هو في أصل وضعه اللغوي: تداخل عناصر مذابة حتى تصير شيئًا واحدًا متماسكًا.

هذا، والسبك معيار نقدي تردد في نتاج سدنة البلاغة والنقد؛ فهذا هو الجاحظ، يقول: "وأجود الشعر: ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغًا واحدًا، وسبك سبكًا واحدًا."[٢] فالجاحظ يؤكد على أن السبك معيار من معايير جودة الشعر، وهو يؤكد على قوة السبك وشدة تماسك بنية الكلام. أما الآمدي فيقول: "فإن كنت – أدام الله سلامتك – ممن يفضل سهل الكلام وقريبه، ويؤثر صحة السبك، وحسن العبارة، وحلو اللفظ، وكثرة الماء والرونق، فالبحتري أشعر عندك ضرورةً. وإن كنت تميل إلى الصنعة، والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة، ولا تلوى على غير ذلك، فأبو تمام عندك أشعر لا محالة."[٣] فالآمدي من خلال موازنته بين أبي تمام والبحتري، يؤكد على أن السبك من سمات الكلام المطبوع، فالسبك من طريقة الأوائل في كلامهم، ومن سمات عمود الشعر.

---

(١) دلائل الإعجاز، للإمام/ عبد القاهر الجرجاني، تح/ محمود شاكر، (ص٩٣)، ط المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط الثالثة، ١٤١٣هـ.

(٢) البيان والتبيين، (١/ ٧٥).

(٣) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، للآمدي، تح/ السيد صقر، (١/ ٥)، دار المعارف، ط الرابعة، بدون تاريخ.

أما أبوهلال العسكري فأتى حديثه عن السبك عند تعرضه لقضية اللفظ والمعنى، يقول: "وليس الشأن في إيراد المعاني؛ لأنّ المعاني يعرفها العربيّ والعجميّ والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السّبك والتركيب، والخلوّ من أود النّظم والتأليف"(١).

فأبو هلال العسكري، يذهب إلى القول بأن: صحة السبك (وهي – كما يرى – الخلو من التعقيد) من سمات جودة اللفظ.

أما الباقلاني: فقد ذهب إلى أن السبك معيار نقدي من تلك المعايير التي يرجع إليها الناقد عند الموازنة بين كلام وكلام: يقول: "تأمل – هداك الله – ما ننسخه لك من خطب الصحابة والبلغاء؛ لتعلم أن نسجها ونسج ما نقلنا – من خطب النبي – صلى الله عليه وسلم – واحد، وسبكها سبكًا غير مختلف، وإنما يقع بين كلامه وكلام غيره، ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين."(٢) فالسبك من تلك الخصوصيات البلاغية التي يعتبرها المتكلم.

ويقول ابن رشيق: "المعاني موجودة في طباع الناس، يستوي الجاهل فيها والحاذق، ولكن العمل على جودة الألفاظ، وحسن السبك، وصحة التأليف"(٣). فابن رشيق يؤكد على أن سبك الكلام ليس على طريقة واحدة، فيمكن للناقد أن يصفه بالحسن، كما يمكنه أن يصفه بالقبح، وذلك بناء على طبيعة ذلك السبك، وخلوه أو

---

(١) كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تح/ علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (ص٥٧ .٥٨)، المكتبة العصرية – بيروت، ١٤١٩هـ.

(٢) إعجاز القرآن، للباقلاني، تح/ السيد صقر، (ص١٣٦)، دار المعارف – القاهرة، ط الخامسة، ١٩٩٧م.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق، تح/ محمد محيي الدين عبد الحميد، (١/ ١٢٧)، دار الجيل، ط الخامسة، ١٤٠١هـ .

اشتماله على التعقيد.

ويقول ابن سنان: "ومن الألفاظ التي ذكرناها، قول أبي عبادة البحتري:

فلا وصل إلا أن يطيف خيالها بنا تحت جؤشوشٍ[1]من الليل مظلمِ

فليس بقبح: (جؤشوش) خفاء. هذا على إنني لم أعرف شاعرًا قديمًا ولا حديثًا أحسن سبكًا من أبي عبادة، ولا أحذق في اختيار الألفاظ وتهذيب المعاني"[2]، فابن سنان يتوافق رأيه مع ابن رشيق، حيث يشير إلى فكرة حسن السبك، حيث يرى في نقده للبحتري أنه: أحسن الناس الذين عرفهم سبكًا، وفي ذلك تأكيد على أن السبك يمكن أن يكون حسنًا، ويمكن أن يكون غير ذلك.

أما الإمام عبد القاهر، فعند حديثه عن بيتٍ لبشار بن برد، رأينا الإمام يقول: "فبيتُ بشار إذا تأَمْلْتَه وجدْتَهُ كالحَلْقةِ المفْرَغَةِ التي لا تَقْبَلُ التقسيمَ، ورأيتَه قد صنعَ في الكَلِم التي فيه ما يَصْنَعُه الصانعُ حين يأخُذُ كِسَرًا من الذَّهب فيُذِيبُها ثمَّ يَصبُّها في قالَبٍ، ويُخرِجُها لكَ سِوارًا أو خلْخالًا، وإنْ أنتَ حاوَلْتَ قَطْعَ بعضِ ألفاظِ البيتِ من بعضٍ، كنْتَ كمَنْ يَكْسِرُ الحَلْقة ويَفْصِمُ السِّوار...فانظُرِ الآنَ ما تقولُ في اتحادِ هذه الكَلِم التي هي أجزاءُ البيتِ؟ أتقولُ: إنَّ ألفاظَها اتَّحدتْ فصارتْ لفظةً واحدةً؟ أمْ تقولُ: إنَّ معانيَها اتَّحَدتْ فصارتْ الألفاظُ مِن أجْل ذلك كأنَّها لفظةٌ واحدةٌ؟."[3]. فالإمام يؤكد على أن:

---

(١) "والجُؤْشُوش: الصَّدْر، وَمضى من الليل جُؤْشُوش، أَي: صدر، وقيل: قطعة منه." المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، تح/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية . بيروت، ط الأولى،١٤٢١هـ. مادة: (جأش).

(٢) سر الفصاحة، لابن سنان، (ص٧٢)، دار الكتب العلمية، ط الأولى، ١٤٠٢هـ.

(٣) دلائل الإعجاز، (ص٤١٤).

- **المتكلم الحاذق يصنع في الكلام ما يصنعه الصانع الحاذق حين يُذيب كسر الذهب في قالب.**
- **سبك الكلام يخرجه في معرِض حسن، كما أن سبك الذهب يخرجه في هيئة سوار أو غيره من صور الحُلِي.**
- **السبك الجيد شديد التماسك، إلى حد أنه يستعصي على الحذف أو الزيادة.**
- **السبك يتم أولًا في المعاني، ثم بعد ذلك تصير الألفاظ كأنها لفظة واحدة، وعندئذ يتحقق السبك.**

يقول ابن الأثير: "وقفت على أشعار الشعراء، قديمها وحديثها...فلم أجد أجمع من ديوان أبي تمام وأبي الطيب للمعاني الدقيقة، ولا أكثر استخراجًا منهما للطيف الأغراض والمقاصد، ولم أجد أحسن تهذيبًا للألفاظ من أبي عبادة، ولا أنقش ديباجة، ولا أبهج سبكًا، فاخترت حينئذ دواوينهم؛ لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعاني والألفاظ، ولما حفظتها ألغيت ما سواها مع ما بقي على خاطري من غيرها."[١]

فابن الأثير يؤكد من خلال قوله: (ولا أبهج سبكًا) على تأثير السبك الجيد في نفوس المتلقين، فالسبك المبهج هو ذلك الذي يخلو من التعقيد، فلا يترك في النفس المتلقية ما يؤرقها ويكدر صفوها.

أما العلوي: فارتقى بالسبك حدا بعيدًا، حتى عده من تلك الخصوصيات التي تشكل ماهيَّة البلاغة، يقول: "اعلم أن البلاغة...في مصطلح النظار من علماء البيان: عبارة عن الوصول إلى المعاني البديعة بالألفاظ الحسنة، وإن شئت قلت: هي

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، تح/ أحمد الحوفي، بدوي طبانة، (٣/ ٢٢٩)، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، بدون تاريخ.

عبارة عن حسن السبك، مع جودة المعاني."[١]

هذا، ويرى الدسوقي أن حسن السبك معناه: "الخلو عن التعقيد اللفظي والمعنوي."[٢]

ومن خلال التأمل في كلام سدنة البلاغة والنقد عن مصطلح: (السبك) يتأكد أن السبك خصوصية بلاغية رئيسة في الكلام، فله دوره الذي لا يُنكر في أداء المعاني، فمن خلاله تشتد عُرى الكلام، ويأخذ بعضه بعناق بعض، فيكون كالكل المجتمع، بل يصير كالشيء الواحد، الذي لا يمكن الأخذ منه أو الإضافة إليه، إن التماسك يعتري مبانيه، حتى يجعلها كاللبنة الواحد، ومن ثَمَّ تُلقى في نفس المتلقي جملة واحد، فتكون أدعى للتأثير والإقناع.

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للعلوي، (١/ ٦٦)، المكتبة العصرية – بيروت، ط الأولى، ١٤٢٣هـ.

(٢) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني، لمحمد بن عرفة الدسوقي، تح/ عبد الحميد هنداوي، (٤/ ٢٣٤)، المكتبة العصرية – بيروت، بدون تاريخ.

المبحث الأول

بلاغة السبك في مقام موقف العز

يقول ابن فارس: "(عَزَّ) الْعَيْنُ وَالزَّاءُ أصل صحيح واحد، يدل على شِدَّةٍ وَقُوَّةٍ وما ضاهاهُما، من غلبة وقهر"(١) ومن أسماء الله – تعالى – العزيز، والعزة لله . تعالى . وحده، ومن فضله – تعالى– يكسو من يشاء ما شاء مِن تلك العزة.

وقد وقف النفري في مقام موقف العز، فانسابت روحه تحلِّق في ذلك المقام، فصاغ عميق المعاني الروحية في دقيق المباني التركيبية، ومن خلال تلك الصياغة بدا السبك جليًا في تراكيبه، يقول: "أوقفني في العز، وقال لي: لا يَستقل به من دوني شيء، ولا يَصلح من دوني لشيء، وأنا العزيز الذي لا يُستطاع مجاورته، ولا تُرام مداومته، أظهرتُ الظاهرَ وأنا أظهر منه، فما يدركني قربه، ولا يَهتدي إليَّ وجوده، وأخفيتُ الباطنَ وأنا أخفى منه، فما يقوم عليَّ دليله، ولا يصحُ إليَّ سبيله."(٢)

يقول: لقد أيقظ الله قابليتي لتلقي التجلي في مقام حضرة العز، وأثبت في قلبي معاني العز، فكأنه خاطبني بقوله: لا يقوم شيء إلا بي، ولا يصلح شيء من دوني فأنا القيوم، وأنا العزيز الذي لا يرى من يشاهد قيوميتي لنفسه وجودًا أصلًا، فالعبد تنعدم ذاته في حال شهودي، فمن شهِد قيوميتي فني، فبقيوميتي ظهر الظاهر الذي يتعلق به الحس أو العقل، وأنا أظهر منه، فأنا محيط بالظاهر، وعلى شدة قربي منه احتجبَ فما يدركني قربه، ولا يَهتدي إليَّ وجوده، وأخفيت الباطن فلا يتبادر إليه الإدراك، وأنا أخفى منه؛ لأن الحقيقة أخفى من الظاهر والباطن، فأدلة العقل لا

---

(١) مقاييس اللغة، (٤/ ٣٨).

(٢) كتاب المواقف، للنفري، تح/ أرثر يوحنا أربري، (ص١)، ط دار الكتب المصرية، نشر مكتبة المتنبي . القاهرة، ١٩٣٤م.

تدركني ولا يصح إليها سبيلي.[١]

إن المتأمل في هذه المقطوعة، تستلفته خَصوصية السبك، تلك التي بدت واضحة القَسَمات، جلية المعالم؛ فقد أتت المقطوعة متماسكة البنيان، فلبناتها يأخذ بعضها بعناق بعض، كأنها أفرغت من خاطر النفري دَفعة واحدة، بعد أن ذابت على جوى الوجد، وأُنضجت بتجربة الحب الإلهي، ولذلك لما حانت لحظة الدفق الوجداني والشعوري، رأينا نصًا يتلقاه المتلقي كأنه جملة واحدة، فيستقر المعنى في نفسه، فيكون أكثر إمتاعًا وإقناعًا، إنه نص يستعصي على الحذف والزيادة والتقديم والتأخير؛ فسبكه المحكم جعله كالكل المجتمع، والشيء الواحد.

ولعل من أبرز أسباب تحقق السبك، ذلك المعنى الواحد الذي يدور حوله الكلام، فالمعنى كالروح التي تنتظم الجسد، يقول ابن رشيق: "اللفظ جسم، وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم"[٢]، فوحدة المعنى رباط يجمع لبنات وجمل النص في بناء متماسك.

والمتأمل في تلك المقطوعة التي بين أيدينا، تستلفته تلك الخَصوصيات البلاغية التي يلوح السبك من خلالها روحًا تسري في تلك المقطوعة، يقول النفري: (أوقفني في القرب) أي: أيقظ قابليتي لشهود تجليه في حضرة قربه[٣]، وتلك جملة استهلالية، بُنيت على الإيجاز، فقد طوى النفري ذكر لفظ الجلالة: (الله) ـ سبحانه وتعالى ـ وفي ذلك الطي سبك لبنية الكلام وتصفية له، فـ"الحذف يكون لتصفية العبارة، وترويق

(١) ينظر: شرح مواقف النفري، ص١٣وما بعدها. (اعتمدت في شرح نصوص مواقف النفري على شرح المواقف بتحقيق د/عاصم إبراهيم الكيالي).
(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، (١/ ١٢٤).
(٣) ينظر: شرح مواقف النفري، (ص٢٥).

الأسلوب من ألفاظ يُفاد معناها بدونها؛ لدلالة القرائن عليها."[١]

وللطي بلاغته في تحقيق سبك العبارة وتماسك بنيتها، حتى تصير كاللبنة الواحدة، وله أثره في التأثير على المتلقي، يقول الإمام عبد القاهر: "هو بابٌ دقيقُ المَسْلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأَمر، شبيهٌ بالسِّحْر، فإنكَ ترى به تَرْكَ الذِكْر، أَفْصَحَ من الذكْرِ، والصمتَ عن الإفادةِ، أَزْيَدَ للإفادة، وتَجدُكَ أَنْطَقَ ما تكونُ إذا لم تَنْطِقْ، وأَتمَّ ما تكونُ بيانًا إذا لم تُبِن."[٢]

وفي قوله: (أوقفني في القرب)، استعارة تمثيلية، عطف عليها استعارة تمثيلية أخرى في قوله: (وقال لي) أي: أثبت في قلبي معنىً. وبين الجملتين سبك عن طريق الواو، فضلًا عن الاقتران بين أسلوبين متماثلين بالاستعارة التمثيلية. وفي الاستعارتين إيجاز لتلك المعاني التي اختصرتاها، وفي ابتناء الكلام على الأسلوب الاستعاري ما يُكسبه مزية السبك؛ لما في تشكيل صورة الاستعارة التمثيلية من تداخل وتكثيف.

النفري يستهل موقفه بقوله: (أوقفني في العز) أي: أيقظ قابليتي لتلقي التجلي؛ وذلك لشهود عز الله[٣]. وأوقف في معاجم العربية تدور دلالتها حول: "تمكُّث في شيء"[٤]، يقال: "رجل وقّاف: متأنٍ غير عَجِل."[٥]

وقد أتى هذا المعنى من خلال تلك الاستعارة التمثيلية، تلك التي صورت معنى:

---

(١) خصائص التراكيب – دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/محمد محمد أبو موسى، (ص١٦٠)، مكتبة وهبة، ط السابعة، بدون تاريخ.

(٢) دلائل الإعجاز، (ص١٤٦).

(٣) ينظر: شرح مواقف النفري، (ص١٣).

(٤) مقاييس اللغة، (٦/ ١٣٥).

(٥) المحكم والمحيط الأعظم، (٦/ ٥٧٨).

التمكُّث في رحاب الحق، من خلال لوحة رسمت ما تموج به نفس هذا المحب من قرب من الله وحضور في مقامه.

وقد بنيت تلك الاستعارة على تشبيه تمثيلي، حيث شبه النفري هيئة إيقاظ قابليته لتلقي التجلي لشهود العز، بهيئة توقيفه في العز، وذلك بجامع التهيئة لتلقي الأنوار والتجليات الإلهية في كلٍ، ثم استعير حال المشبه به للمشبه، وذلك على سبيل الاستعارة التمثيلية.

هذا، و"الاستعارة التمثيلية... فن قولي يعتمد الإيجاز أداة أساسية للاتصال اللغوي بالمخاطب؛ بغية الوصول إلى أعلى درجة من الإفهام والتأثير، وفي هذا شاع قولهم: (البلاغة الإيجاز)، وتلك سمة بارزة من سمات العربية في إبداعها."[١]

وفي استهلال النفري الموقف بتلك الاستعارة التمثيلية، ما منح البناء التركيبي تكثيفًا دلاليًا؛ حيث اختصرت الصورة الاستعارية الكلام الكثير الذي يموج به خاطر النفري، فأتى الكلام موجز البناية، غزير الدلالة، وفي ذلك ما يسهم في سبك الكلام وتماسكه.

ثم يعطف النفري استعارة تمثيلية على مثلها، يقول: "أوقفني في العز، وقال لي:" فقوله: (وقال لي:) استعارة تمثيلية، بنيت على تشبيه تمثيلي، حيث شبهت هيئة رفع الحجاب لتلقي المعرفة من الله ـ تعالى ـ، بهيئة تكليم الله ـ تعالى ـ للنفري، وذلك بجامع حصول التواصل والتلقي من الله في كلٍ، ثم استعير حال المشبه به للمشبه، وذلك على سبيل الاستعارة التمثيلية.

وفي عطف الجمل بالواو ما يؤكد على ائتلاف معانيها، فبينها رحم من الدلالة،

---

(١) التعبير البياني ـ رؤية بلاغية نقدية، د/ شفيع السيد، (ص٢٠١)، ط دار غريب ـ القاهرة، ٢٠٠٦م.

تلك الرحم التي جعلت البناء التركيبي مسبوكًا، متداخل الأجزاء، مشدود العُرَى، لا تكاد تشذ جملة واحدة من جمله عن ذلك، يقول الإمام عبد القاهر عن الواو التي تصل الجمل: "وجملةُ الأمر أنها لا تجيءُ حتى يكونَ المَعْنى في هذِهِ الجملة لَفْقًا للمعنى في الأخرى ومُضَامًّا له."(١)

ثم يقول النفري: "وقال لي: لا يَستقل به من دوني شيء، ولا يَصلح من دوني لشيء"(٢) أي: أزال الله عني الحجاب، فعرفني أنه لا يستقل بالوجود شيء إلا به، ولا يصلح الوجود لشيء سواه.(٣) فهذه الجمل الثلاث، نرى السبك يشد وثاقها، ويجمع بناءها، فبين قوله: (وقال لي) وقوله: (لا يَستقل به من دوني شيء...) فصل؛ وذلك لشدة الرابطة بينهما، فقد أتى الكلام الثاني جوابًا لسؤال مقدر أثارته الجملة الأولى، وهو: ماذا قال لك؟ وهو ما سماه البلاغيون شبه كمال الاتصال. فـ"وقوع الجملة جوابًا لسؤال اقتضته الأولى موجب للفصل...؛ لأن السؤال والجواب إن نظر إلى معنيهما فبينهما شبه كمال الاتصال."(٤)

كما أن الضمير الظاهر في قوله: "لا يستقل به" والمستتر في قوله: "ولا يصلح" يعودان على مرجعهما وهو "العز" في قوله: "أوقفني في العز" وفي ذلك العود ما يخلع على بنية الكلام ترابطًا ما كان له أن يتحقق إلا من خلال تلك الإحالة.

هذا، ومن صور السبك الذي يبدو جليًا، ذلك التناسب بين الجمل من حيث مقدارها، وكونها خبرية، يقول النفري: (أوقفني في العز– وقال لي – لا يَستقل به من

---

(١) دلائل الإعجاز، (ص٢٢٥).

(٢) كتاب المواقف، (ص١).

(٣) ينظر: شرح مواقف النفري، (ص١٣).

(٤) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني، (٢/ ٥٠٤).

دوني شيء – ولا يَصلح من دوني لشيء – وأنا العزيز الذي لا يُستطاع مجاورته – ولا تُرام مداومته – أظهرتُ الظاهر – وأنا أظهر منه – فما يدركني قربه – ولا يَهتدي إليَّ وجوده – وأخفيتُ الباطنَ – وأنا أخفى منه – فما يقوم عليَّ دليله – ولا يصحُ إليَّ سبيله.)

وهكذا أتت جمل النفري تسرى خلالها روح التناسب، الذي ظلل البناء التركيبي للمقطوعة، حيث جمع بين ألفاظ بينها رحم من الدلالة، مما جعل البناء التركيبي للمقطوعة متماسك العُرَى، كالكل المجتمع، والخَلق المستوي، يقول النفري: " العزيز . يستطاع . مجاورته . ترام . مداومته . أظهرت . الظاهر . أخفيت" إنها كلمات تدور دلالاتها حول العزة، ولا شك أن ذلك التناسب جمع أجزاء ذلك النص، وأقام بينها رحمًا.

ومن صور السبك . كذلك . التكرار، فالمتأمل في المقطوعة السابقة، تستوقفه تلك الكلمات المكررة: (دوني . شيء . أنا) فتكرار تلك الكلمات أسهم في ذلك السبك الذي بدا واضحًا في المقطوعة، والإتيان بكلمات بعينها يشد وثاق النص ويُحكم سبكه، فـ"التكرار أداة أجادها العرب، واكتسبت جلالًا حين تعامل معها القرآن، كما في سورة الرحمن . مثلًا"[1] وللتكرار أثر لا يُنكر في أداء المعاني، وذلك إذا كان المتكلم متمكنًا من أدواته.

ثم يقول النفري: "وقال لي: لو أبديتُ لغةَ العز لخطفتْ الأفهامَ خطفَ المناجل، ودرست المعارف درسَ الرمال، عصفت عليها الرياح العواصف. وقال لي: لو نطق ناطقُ العز، لصمتت نواطق كل وصف، ورجعت إلى العدم مبالغُ كل حرف. وقال لي:

---

(١) دراسات في النص الشعري، د/ عبده بدوي، (ص١١٩)، ط دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، بدون تاريخ.

أين من أعدَّ معارفَه للقائي؟! لو أبديتُ له لسانَ الجبروت لأنكر ما عرف، ولمارَ مورَ السماء يوم تمور مورًا."[١]

يقول: وقال لي ربي: لو أبديتُ لك حال العز، والذي هو فوق إدراك العقول، لخطفَ الأفهامَ بسهولة وسرعة كما تَخطِف المناجلُ الزرع، ولانمحت معارف الخلق كما تنمحي الرمال التي أتت عليها الرياح العواصف. وقال لي ربي: لو نطق ناطق العز الإلهي لصمتت نواطق كل وصف، وصمتُ الوصف دليلٌ على صمت الموصوف، والموصوف هو: عالم الخلْق، ورجعت إلى العدم مبالغ علوم الخلق. وقال لي: أين من أعدَّ معارف لمواجهة أقداري؟، لو أبديت له لسان الجبروت لأنكر ما عرف، فلا معرفة إلا معرفتي.[٢]

في قوله: "لو أبديتُ لغةَ العز لخطفتْ الأفهامَ خطفَ المناجل، ودرست المعارفَ درسَ الرمال، عصفت عليها الرياح العواصف"؛ بنى النفري كلامه على أسلوب الشرط الذي طريقه: (لو) فجملة الشرط: (لو أبديتُ لغة العز) وجوابه: (لخطفتْ الأفهامَ خطفَ المناجل...).

وفي أسلوب الشرط ما شدَّ وثاق الكلام، وربط بين طرفيه؛ فالمتكلم عندما يتلقى جملة الشرط، تتزاحم على خاطره أسئلة كثيرة، تنشد الجواب، ومن هنا تتوقد لهفته، وتزداد حيرته، ولا تسكن نفسه، حتى تلوذ بالجواب الذي ما إن يساق إليها، حتى تطمئن بعد اضطراب، وتستقر بعد حركة. وفي ذلك من دقة السبك، وترابط بنى الكلام، ما يجعل البناء كالكل المجتمع، والشيء الواحد. فـ"الأسلوب الشرطي، يمتاز بربطه بين أجزاء الكلام ربطًا ملاحَظًا، فيه ترتُّب المسبَّب على السبب، فإذا ذكرتَ أداة

---

(١) كتاب المواقف، (ص١).

(٢) ينظر: شرح مواقف النفري، (ص ١٧وما بعدها).

الشرط، وأردفتَ بفعل الشرط، تشوقت النفس إلى ذكر ما سيكون، فإذا ذكِر الجواب بعد هذه الإثارة، وهذا التشويق، تمكن أيما تمكن."[١]

هذا، وفي الشرط بـ(لو) ما يعكس معنى رحمة الله ـ تعالى ـ بعباده؛ لأن الشرط بـ(لو) مقطوع بانتفائه، يقول الخطيب القزويني: "لو للشرط في الماضي مع القطع بانتفاء الشرط، فيلزم انتفاء الجزاء... ولذلك قيل: هي لامتناع الشيء لامتناع غيره."[٢] وعلى ذلك فالنفري يؤكد أن الله ـ تعالى ـ لن يبدي لغة العز لعباده؛ فهو الرؤوف بهم، الرفيق بضعفهم.

وفي دخول لام التوكيد على الجواب في قوله: (لخطفتْ الأفهامَ خطفَ المناجل) ما أكد المعنى المراد، كما أن لام التوكيد أسهمت مع الأسلوب الشرطي في نسج الكلام على نسق متماسك، يأخذ بعضه بعناق بعض، فالتوكيد فيه من طاقات تقوية المعنى ما يجعل الكلام محكم العرى، مشدود الأطراف.

كما أن التشبيه المركب الطرفين في قوله: (لخطفت الأفهام خطف المناجل)؛ أتى وقد انسبك في بنية متماسكة، على مستوى صورة التشبيه، وعلى مستوى كلا الطرفين، فعلى مستوى صورة التشبيه، نرى تلك الصورة التشبيهية متداخلة الخيوط، فلغة العز لو أبديت فكشفت عن حقيقتها لخطفت الأفهام؛ لأنها من الحكمة بحيث تسمو فوق إدراك الأفهام. وقد صوَّر النفري تلك الصورة المركبة بخطف المناجل التي تحصد الزرع في لمحة خاطفة، فكل من المشبه والمشبه به صورة مركبة من أجزاء اتحدت فيما بينها؛ لتؤلف تركيبًا أثمر نقلًا دقيقًا لما تموج به نفس النفري. وفي تلك

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د/عبد العظيم المطعني، (٢٠٨/١)، مكتبة وهبة، ط١، ١٩٩٢م.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، تح. د/ محمد عبدالمنعم خفاجي، (٢/ ١٢٥)، ط دار الجيل – بيروت، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ.

الصورة التشبيهية الكثيفة الظلال ما أثمر بنية متماسكة يأخذ بعضها بعناق بعض، بل إننا إذا ما أردنا أن ننزع منها جزءًا أعيانا ذلك، فقد سبكتها يدٌ صَناع، استطاعت أن تسبك التركيب، وأن تذوِّب عناصره، وما كان لذلك أن يتأتى إلا من خلال ذلك المعنى المنسبك من عناصر اتحدت لتؤلف معنى واحدًا متماسكًا.

هذا، وقد عطف النفري قوله: (ودرست المعارف درس الرمال، عصفت عليها الرياح العواصف) على جواب الشرط في قوله: (لخطفت الأفهام خطف المناجل) وقد وصلت الواو الجملتين، وفي ذلك ما يؤكد ما بين الجملتين من إلف، يقول الإمام عبد القاهر عن الواو التي تصل الجمل: "وجملةُ الأمر أنها لا تجيءُ حتى يكونَ المَعْنى في هذِهِ الجملة لَفْقًا للمعنى في الأخرى ومُضَامًّا له."(١)

كما أن جملة: (ودرست المعارف درس الرمال) بنيت على التشبيه البليغ، حيث شبه النفري: درس المعارف، (أي: انمحاءها)، بدرس الرمال. وفي تلك الصورة ما ينقل المعنى المراد لتلك المعارف البشرية، التي تنمحي أمام جبروت العز الإلهي، ولا يخفى ما في الصورة من رسم دقيق الخيوط للعظمة الربانية والعز الإلهي، الذي لا يثبت أمامه شيء، كما أن في الصورة ما يؤكد على أن ما سوى الله مهما علا واستقر، فلا عاصم له أمام عز الله، كما أن الرمال الراسخة تثبت وتستقر، ولكنها لا تثبت أمام عواتي الرياح.

إن في تلك الصورة ما يعكس قدرة النفري على سبك مبانيه على نحو بديع ثري بعزير المعاني؛ ففي العبارة يقف إيجاز القصر شاهدًا على معانٍ كثيفة الظلال، تتدثر وراء ذلك السبك.

ومن وراء تلك الصورة التشبيهية الكثيفة الظلال، يطالعنا النفري بجملة حالية، إذ

---

(١) دلائل الإعجاز، (ص٢٢٥).

يقول: (عصفت عليها الرياح العواصف) تلك الجملة الحالية التي وصفت المشهد للمتلقي، وكأنه كان هناك يسمع ويرى، لقد كشفت تلك الجملة عن كيفية درس الرمال، كما أن علاقة الحالية بين تلك الجملة وما قبلها، رابطة قوية أحكمت السبك بين عرى الكلام.

هذا، وفي قوله: (ودرست المعارف درس الرمال، عصفت عليها الرياح العواصف) فصل بين جملة: (ودرست المعارف درس الرمال) وجملة: (عصفت عليها الرياح العواصف)؛ حيث إن الجملة الأولى أثارت سؤالًا أتت الجملة الثانية جوابًا له، وهذا ما سماه البلاغيون: شبه كمال الاتصال، ويتحقق عندما "تكون الجملة الثانية جوابًا عن سؤال اقتضته الأولى، فتفصل الثانية عن الأولى، كما يفصل الجواب عن السؤال."[1] والعلاقة بين السؤال والجواب علاقة الشطرين المتكاملين، وفي تلك العلاقة المترابطة ما يعكس ذلك السبك الذي يربط البناء التركيبي، فالجملة الأولى تظل تتردد في وجدان المتلقي متطلعة إلى الجواب، فلا تهدأ حتى تتلقى الجواب.

ومما أضفى على بنية الكلام سبكًا، تلك البنى المعجمية التي نسج منها سبك الكلام، يقول النفري: (درست – درس)، ويقول: (عصفت – العواصف)، ففي ذلك السبك المعجمي ما شدَّ وثاق البناء، وأحكم نسجه، وجعله كالسبيكة المتماسكة، وفي ذلك من الأثر ما لا يخفى من إلقاء الكلام دفعة واحدة في نفس المتلقي، مما يجعل الكلام يؤتي ثمرته المرجوة إمتاعًا وإقناعًا.

ثم يقول النفري: "وقال لي: لو نطق ناطقُ العز، لصمتت نواطق كل وصف،

---

(١) البلاغة العالية – علم المعاني، للشيخ/ عبد المتعال الصعيدي، (ص١١٢)، مكتبة الآداب، الطبعة الثانية، ١٩٩١م.

ورجعت إلى العدم مبالغُ كل حرف"[١]. وقد بنيت هذه العبارة على أسلوب الشرط، فجملة الشرط قوله: (لو نطق ناطقُ العز) وجملة الجواب قوله: (لصمتت نواطق كل وصف، ورجعت إلى العدم مبالغُ كل حرف) وفي بناء العبارة على الشرط، ما جعل الكلام يقع في نفس المتلقي جملة واحدة، مما يجعله مؤثرًا مقنعًا. فبناء الكلام على أسلوب الشرط طريق من تلك الطرق التي يتحقق من خلالها سبك الكلام.

وفي بناء العبارة من بنية معجمية مشتقة من جذر واحد، ما جعلها محكمة السبك، دقيقة النسج، ينادي أولها على آخرها، يقول: (نطق ـ ناطق ـ نواطق) ففي تلك البني المنسدلة من جذر لغوي واحد، ما يجعل العبارة متماسكة البناء. ومما أسهم في بناء العبارة على ذلك النسق المحكم، تلك الصور التي تحمل بين مطاويها ظلالًا كثيفة المعاني، متشابكة الخيوط، وثيقة العُرى، يقول: (لو نطق ناطق العز لصمتت نواطق كل حرف).

لقد أدى النفري المعنى من خلال استعارة تمثيلية، وقد بنيت تلك الاستعارة على تشبيه تمثيلي، حيث شبه هيئة ما لو ظهر مظهر للعز الإلهي فتلاشت أمامه مظاهر كل عز لعالم الخلق، بهيئة ما لو نطق ناطق العز الإلهي فصمتت نواطق كل حرف، وذلك بجامع ظهور شيء قوى يتلاشى أمام جبروته شيء ضعيف في كلٍ، ثم استعير حال المشبه به للمشبه، وذلك على سبيل الاستعارة التمثيلية. ومما زاد الصورة الاستعارية إمتاعًا وإقناعًا، بناؤها على صورة تشبيهية طرفاها بنيا على الخيال، ومن ثم أتت الصورة كثيفة التشكيل، طويت بين مطاويها دلالات وريفة الظلال، فكلما قرأتها افترَّت لك عن دلالات جديدة.

هذا، ويُحسِّن موقع التخييل من النفس، أن يترامى بالكلام إلى أنحاء من التعجيب،

---

(١) كتاب المواقف، (ص١).

فيقوى بذلك تأثُّر النفس المتلقية لمقتضى الكلام. والتعجب يكون باستبداع ما يثيره المتكلم من لطائف الكلام التي يقلُّ التهدي إلى مثلها، فورودها مستندر مستطرف، كالتهدي إلى ما يقل التهدي إليه من سبب للشيء تخفى سببيته أو غاية له، أو شاهد عليه، أو شبيه له أو معاند، وكالجمع بين مفترقين من جهة لطيفة قد انتسب بها أحدهما إلى الآخر، وغير ذلك من الوجوه التي من شأن النفس أن تستغربها.[١]

ثم تأمل ذلك الطباق بين قوله: (نطق) وقوله: (صمتت) وما في ذلك الطباق من قدرة على جمع أطراف الكلام، وإخراجه في سبك جيد، فللطباق أثر جلي في سبك البناء التركيبي للكلام؛ فالنفس المتلقية إذا تلقت الكلمة وضدها، ترددتا في أنحاء تلك النفس مرة بعد مرة، فكلتاهما تستدعي الأخرى، وفي ذلك من سبك الكلام، وتماهي لبناته ما لا يخفى.

وفي قوله في جواب الشرط: (لصمتت نواطق كل وصف، ورجعت إلى العدم مبالغ كل حرف) وصل بالواو بين جملتين: الأولى: (لصمتت نواطق كل وصف) والثانية: (رجعت إلى العدم مبالغ كل حرف) وقد وُصلت الجملتان للتوسط بين حالتي كمال الانقطاع وكمال الاتصال، فالجملتان اتفقتا في الخبرية لفظًا ومعنىً، وفي الوصل بين الجملتين بالواو ما جمع بين عُرى الكلام، وأكد على رحم بين جمله، تلك الرحم سوغت ذلك الوصل بالواو، فبين الجملتين جامع عقلي، طريقه التماثل، فقد اشتركت الجملتان في وصف له نوع اختصاص بهما[٢].

---

(١) ينظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لحازم القرطاجني، تح/ محمد الحبيب الخوجة، (ص٩٠)، ط دار الغرب الإسلامي – بيروت، بدون تاريخ.

(٢) ينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، للشيخ/ عبد المتعال الصعيدي، (ص٣٠٤)، مكتبة الآداب . القاهرة، ط السابعة عشرة، ٢٠٠٥م.

ثم يقول النفري: "وقال لي: أين من أعدَّ معارفَه للقائي؟! لو أبديتُ له لسانَ الجبروت، لأنكر ما عرف، ولمارَ مورَ السماء يوم تمور مورًا."[١]

لقد بنيت تلك الجمل على الفصل؛ وذلك لشبه كمال الاتصال، فقد فصل النفري بين قوله: (وقال لي) وقوله: (أين من أعدَّ معارفَه للقائي؟!) كما فصل بين قوله: (أين من أعدَّ معارفَه للقائي) وقوله: (لو أبديتُ له لسانَ الجبروت)، كما فصل بين قوله: (لو أبديتُ له لسانَ الجبروت) وقوله: (لأنكر ما عرف)، ففصل بين الجمل في كل ما سبق لشبه كمال الاتصال؛ لأن الجملة الثانية في كلٍ أتت جوابًا عن سؤال اقتضته الجملة الأولى، فصارت الثانية بمنزلة المتصلة بالأولى. وفي تلك الصلة سبك للكلام، فبين السؤال وجوابه من الصلة ما يجعلهما كالشيء الواحد.

وفي قوله: (لو أبديتُ له لسانَ الجبروت) مجاز مرسل، في قوله: (لسان) علاقته الآلية، حيث أطلق اللسان، وأراد "البيان عن علم الحقائق"[٢]، وفي إطلاق اللسان ما يبرز حقيقة طلاقة قدرة الجبروت الإلهي. وفي الصورة المجازية اختصار للكلام، وسبك لبنايته، ففي صورة قليلة الألفاظ سيقت معانٍ كثيرة، لو أخذنا ننثر جَعبتها لاحتجنا لجمل طوال.

وفي قوله: (لأنكر ما عرف، ولمارَ مورَ السماء...) وصل بين جملتين بينهما توسط بين الكمالين، لما بينهما من جامع قوي، باعتبار المسند إليه في كلٍ منهما، فالفاعل في: (أنكر) و(مار) واحد، وفي بناء الكلام على ذلك النسق جمع لعُرَى الكلام، وسبك لنواحيه.

---

(١) كتاب المواقف، (ص١).

(٢) معجم مصطلحات الصوفية، د/ عبدالمنعم الحفني، (ص٢٢٩)، دار المسيرة ـ بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.

وفي قوله: (ولمارَ مورَ السماء يوم تمور مورًا) اقتباس إشاري[1]، ففيه إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ [الطور: ٩]، وفي ذلك الاقتباس ما يؤكد المعنى في نفوس المتلقين، وفي الفصل بين قوله: (ولمارَ مورَ السماء) وقوله: (يوم تمور مورًا) شبه كمال اتصال، فالجملة المقتبسة من القرآن الكريم، أتت لتجيب عن سؤال مقدر أثارته الجملة التي قبلها، وفي ذلك من سبك الكلام ما أغنى عن الوصل؛ فالعلاقة بين الجملتين أوثق من أن تُوثَّق.

وفي قوله: (لمار،مور، تمور، مورًا) جمع اشتقاقات لكلمات ترجع كلها إلى جذر لغوي واحد،هو:(مور) وفي ذلك النسق التركيبي ما يحدث في بنية الكلام سبكًا يشد وثاقها، ويجمع أطرافها؛ فتلك الاشتقاقات يؤلف بينها تلك الرحم التي نتج عنها تلك العلاقة.

وقول النفري في أثناء كلامه: (وقال لي:) تكرار لتلك الجملة، والتي لها أثرها في سبك الكلام؛ فالتكرار خَصوصية بلاغية لها أثرها في سبك الكلام وشدِّ عراه. فـ"التكرار سلاح ذو حدين، فقد يكون ناجحًا مثمرًا إذا طرق النفوس من أبواب ملونة، وقد يكون مبعث السأم والضيق، إذا فقد التلوين في العرض، والإبداع في التصوير، حتى لا يؤدي إلى عكسه بانصراف الناس عن فحواه."[2]

وهكذا، وفق النفري في أن يخرج كلامه على هذا النسق الفريد، الذي لا يستطيع إليه سبيلًا إلا من أوتي حظًا من فن القول.

---

(١) "والاقتباس عند البلاغيين: ضرب من ضروب علم البديع، الذي يكمل مع علمي المعاني والبيان قواعد البلاغة وعلومها الثلاثة فهو أحدها... وهو...نوعان، هما – الاقتباس النصي: وفيه يلتزم الشاعر بلفظ النص القرآني وتركيبه، والاقتباس الإشاري: وهو أن يأخذ الشاعر من القرآن الكريم ما يشير به إلى آية أو آيات منه، من غير الالتزام بلفظها وتركيبها." الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي، لعبدالهادي الفكيكي، (١٣/١٤)، منشورات دار النمير للنشر والتوزيع – دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

(٢) البلاغة النبوية، د/ محمد رجب البيومي، (ص١٩٠)، ط الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.

المبحث الثاني

بلاغة السبك في مقام موقف القرب

من المقامات التي تناولها النفري في: (كتاب المواقف) مقام موقف القرب، وفيه نرى النفري يسطِّر مواجيده التي انطوى عليها عالمه الداخلي، فراح بيانه يتدفق بما رآه بعين روحه في مقام القرب من الله – تعالى – .

يقول: "أوقفني في القرب، وقال لي: ما مني شيء أبعد من شيء، ولا مني شيء أقرب من شيء، إلا على حكم إثباتي له في القرب والبعد. وقال لي: البعد تعرفه بالقرب، والقرب تعرفه بالوجود، وأنا الذي لا يرومه القرب، ولا ينتهي إليه الوجود. وقال لي: أدنى علوم القرب، أن ترى آثار نظري في كل شيء، فيكون أغلب عليك من معرفتك به. وقال لي: القرب الذي تعرفه في القرب الذي أعرفه كمعرفتك في معرفتي. وقال لي: لا بُعدي عرفت ولا قربي عرفت، ولا وصفي كما وصفي عرفت. وقال لي: أنا القريب لا كقرب الشيء من الشيء، وأنا البعيد لا كبعد الشيء من الشيء."[١]

يقول النفري: لقد أيقظ الله ـ تعالى ـ قابليتي لشهود تجليه في قربه، وأثبت في قلبي معاني القرب، فكأنه خاطبني بقوله: ليس شيء أبعد في المرتبة مني من شيء، وليس شيء أقرب في المرتبة مني من شيء، إلا على حكم إثباتي له في القرب الرتبي. وقال لي: بعدُك مني تعرفه بما يحصل لك من القرب، وقربُك مني تعرفه بما يحصل لك بما تجد في قلبك من مواجيد ربانية، وأنا الذي لا يكون القرب سببًا لشهود

(١) كتاب المواقف، (ص٢).

ذاته، ولا ينتهي إليه الوجود[١]. وقال لي: إن أدنى علوم القرب من الله ـ تعالى ـ أنك إذا نظرت إلى شيء بالحس أو العقل، وجدت نظرك إليه ـ تعالى ـ أغلب عليك من معرفتك بذلك الشيء، والناس في ذلك مراتب. وقال لي: قربي منكَ مطلق، وقربك مني محصور في مرتبة معينة، وقربك المحصور في مرتبة بالنسبة لقربي المطلق كمعرفتك بالنسبة لمعرفتي. وقال لي: إنك لم تَقْدُرْني حق قدري فعرفانك بي منقوص، فلا بُعدي عرفت ولا قربي عرفت، ولا وصفي كما يليق بجلالي عرفت. وقال لي: قربي وبعدي ليس كقرب وبُعد سواي.[٢]

يستهل النفري كلامه في مقام موقف القرب بقوله: (أوقفني في القرب، وقال لي:) وهاتان جملتان يستهل بهما النفري مواقفه، ـ وسبق الوقوف معهما فيما سبق ـ ولا شك أن تكرار النفري لجمل بذاتها على امتداد مواقفه، يمثل صورة من صور السبك الذي يجاوز مستوى الجملة والجمل والنص إلى مستوى المواقف جميعها، فتكرار جمل بذاتها على امتداد المواقف يمثل روحًا تسري في نصوص الكتاب كله، وفي ذلك من السبك ما لا يخفى.

يقول: "وقال لي: ما مني شيء أبعد من شيء، ولا مني شيء أقرب من شيء، إلا على حكم إثباتي له في القرب والبعد."[٣] قوله: (وقال لي:) تثير في نفوس المتلقين أسئلة كثيرة عن مضمون ذلك الخطاب، خاصة وأنه من الله ـ تعالى ـ وقد فصل بين الجملتين: (وقال لي) و (ما مني شيء أبعد من شيء) لما بينهما من

---

(١) الوجود: "إدراك حقيقة الشيء... والمراد: وجود الحق عينه بعينه." معجم اصطلاحات الصوفية، للكاشاني، تح. د/ عبدالعال شاهين، (ص٣٧١)، ط دار المنار – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

(٢) ينظر: شرح مواقف النفري، (ص٢٥وما بعدها).

(٣) كتاب المواقف، (ص٢).

صلة قوية جعلت كلتاهما تذوب في الأخرى، مما أحكم سبكهما وجعلهما كالشيء الواحد، فالسؤال والجواب كالشيء الواحد، وهذا ما سماه البلاغيون: شبه كمال الاتصال، والسؤال ليس حقيقيًا، إنما هو سؤال بالفحوى، لا يُصار إليه إلا لجهات لطيفة(١).

وقوله: (ما مني شيء أبعد من شيء، ولا مني شيء أقرب من شيء، إلا على حكم إثباتي له في القرب والبعد) أسلوب بني على القصر، والقصر بناء محكم النسج، دقيق السبك؛ لأنه يقوم على التداخل بين بنى الكلام، فبين المقصور والمقصور عليه رحم من الدلالة، فالقصر يقوم على النفي والإثبات، وهو هنا حقيقي، و"القصر الحقيقي ينظم حكمين: إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عما عداه، وكلاهما حقيقة."(٢)

وقد طالعنا النفري في أسلوبه الذي بين أيدينا بمقصور يقع في جملتين، يقول: (ما مني شيء أبعد من شيء، ولا مني شيء أقرب من شيء) وقد ربط بينهما بـ(الواو) العاطفة، التي قوَّت سبكهما ودعمت وصلهما، وجعلت الجملتين كالجملة الواحدة المحكمة البناء، وفي الجملتين اللتين انسبك منهما المقصور، نلمح ذلك التناسب الذي تنوعت صوره، والتي أولها: تناسبهما في المقدار، فمن المناسبة أيضًا: التناسب في المقدار، وقد استقبح أرباب البيان إطالة الفصول لئلا يؤتى بالجزء الأول طويلًا، فيحتاج إلى إطالة التالي له ليساويه، أو يزيد عليه، فيظهر في الكلام التكلف، ويقع ما لا حاجة للمعنى والغرض إليه(٣). ولا شك أن تناسب المقدار يجعل كلًا من طرفي الكلام ذائبًا في الآخر؛ لما بينهما من ذلك التشابه الذي يظللهما.

---

(١) ينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، (ص٢٩٤).

(٢) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين السبكي، تح. د/ عبد الحميد هنداوي، (١/ ٣٩٣)، المكتبة العصرية للطباعة والنشر- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ .

(٣) ينظر: سر الفصاحة، (ص١٩٢).

كما أن من صور ذلك التناسب في بنية المقصور، ذلك التكرار، فالبني التي انسبكت منها الجملة الأولى، تكرر أكثرها في الثانية. فاللفظتان: (مني ـ شيء) تكررتا في الجملتين، ولا يخفى أثر ذلك التكرار في تحقيق سبك الكلام، وأي سبك أقوى من ذلك الذي سبيله التكرار، الذي من خلاله تتردد أصداء كلمات بذاتها في الكلام أكثر من مرة؟ والمعول عليه في التكرار طريقته، فالتكرار يزداد أثره في تحقيق السبك بالتدخل في العنصر المكرر، والتصرف في صياغته بحيث لا يأتي بصورة واحدة في كل مرة(١).

هذا، ومما أسهم في تحقيق سبك الكلام، ذلك الطباق في قوله: (أبعد) وقوله: (أقرب)، ومزية الطباق في "موافقة الضدين في الوقوع في جملة واحدة، واستوائهما في ذلك، مع بعد الموافقة بينهما."(٢)

وفي الطباق ما أبرز المعنى المراد من عبارة النفري، حيث تجلت حقيقة طلاقة القدرة والهيمنة الإلهية، فالطباق مثَّل رباطًا قويًا جعل بنية الكلام تذوب وتتداخل في بوتقة العبارة، مما أنتج بناءً متماسك العُرى. وفي قوله: (إلا على حكم إثباتي له في القرب والبعد) طباق ـ كذلك ـ بين لفظتي: (القرب والبعد) وقد جمع النفري بين لفظتي الطباق بالواو العاطفة، وهنا يستلفت ذهننا ذلك التوالي بين صور السبك، تلك التي تؤلف فيما بينها جوقة مؤتلفة الأنساق، تثمر سبكًا محكمًا، ذابت عناصره وتداخلت حتى صارت شيئًا واحدًا.

---

(١) ينظر: عن بناء القصيدة العربية الحديثة، د/ على عشري زايد، (ص٦٠)، مكتبة الآداب، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٨م.

(٢) الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، عصام الدين الحنفي، تح. د/ عبد الحميد هنداوي، (٢/ ٣٦٨)، دار الكتب العلمية ـ بيروت، بدون تاريخ.

ثم يقول النفري: (وقال لي: البعد تعرفه بالقرب، والقرب تعرفه بالوجود) فاستأنف قائلًا: (وقال لي:) حتى أشعر المتلقي أن كلامًا جديدًا منبتًا عن سابقه سيطالعنا به؛ إلا أن الأمر ليس على ذلك؛ فعبارة النفري لها بما قبلها أواصر دلالية، فقد ذكر في العبارة السابقة القرب والبعد، وهو هنا يؤكد أن إدراك البعد عن الله يتأتى بما يحصل للعبد من القرب، وإدراك القرب يتأتى بما يحصل للعبد من مواجيد ربانية.

وعلى ذلك فقد جمع النفري بين عبارتين بينهما مناسبة ظاهرة، فالمتأمل فيهما يستلفته ذلك التوافق والانسجام الذي مثَّل رحمًا تُؤلف بينهما.

والتناسب بين العبارتين طريق من طرق السبك، التي تشد وثاق الكلام، وتجعل بعضه آخذًا بعناق بعض. وبين قوله: (القرب) وقوله: (البعد) طباق جلى المعنى وأبرزه في وجدان المتلقين، كما أن التضاد يعكس حقيقة يلح عليها النفري في مواقفه، وهي: أن الإنسان دائمًا مخير بين النَّجْدَين، فليختر أيهما شاء، والإنسان هنا إما أن يختار طريق البعد وإما أن يختار طريق القرب. ولا شك أن الطباق أبرز البون الشاسع بين المقامين، كما أن في الطباق سبكًا لبنية الكلام؛ حيث جعل أول الكلام وآخره يذوبان معًا في بوتقة العبارة، لتُلقَى دَفعة واحدة في وجدان المتلقي، فتؤثر فيه إمتاعًا وإقناعًا.

ثم يقول النفري: (وأنا الذي لا يرومه القرب، ولا ينتهي إليه الوجود) فعطف الكلام على سابقه بالواو، والوصل بالواو يسبك نسق الكلام، عن طريق تلك الواو التي تصل الكلام وتشد وثاقه، وعن الوصل بالواو يقول الإمام عبد القاهر: "وجملةُ الأمر أنها لا تجيءُ، حتى يكونَ المَعْنى في هذِهِ الجملة لَفْقًا للمعنى في الأخرى ومُضَامًّا له."[١]

(١) دلائل الإعجاز، (ص٢٢٥).

كما كرر النفري لفظتي: (القرب) و(الوجود) هنا بعد أن ذكرهما في العبارة السابقة، فتعانق السبك المعجمي مع السبك بغيره من الوسائل، كما أن العبارتين اشتملتا على صيغة المضارعة، يقول في الأولى: (تعرفه) مرتين، ويقول في الثانية: (يرومه، ينتهي)، كما أن من صور السبك ذلك التناسب في مقدار بنية الجمل، يقول: (البعد تعرفه بالقرب)، (القرب تعرفه بالوجود)، (أنا الذي لا يرومه القرب)، (ولا ينتهي إليه الوجود) ففي هذا التقارب في مقدار بنية الجمل سبك، إنه طريق من طرق السبك التي تمثل رحمًا يؤلف بين الجمل.

ومن مظاهر السبك على مستوى تركيب الجملة هنا تلك الضمائر العائدة، يقول النفري: (البعد تعرفه بالقرب)، فاشتمل المسند: (تعرفه) على ضمير يعود على المسند إليه: (البعد) مما أخرج الجملة في صورة متماسكة، يأخذ آخرها بعناق أولها، ووقع ذلك كذلك في قوله: (القرب تعرفه بالوجود)، (أنا الذي لا يرومه القرب)، كما أن الضمير في: (إليه) يعود كذلك على المسند إليه: (أنا) ولا شك أن عود الضمائر على مذكور متقدم، يحقق السبك الذي يجعل الجملة توضع في النفس وضعًا وكأنها لبنة واحدة لا جملة من عدة لبنات.

ثم يقول النفري: "وقال لي: أدنى علوم القرب، أن ترى آثار نظري في كل شيء، فيكون أغلب عليك من معرفتك به."[1]

في هذا البناء التركيبي، الذي نسجه النفري من خلال تلك الجملة، ساق لنا معنىً دقيقًا محكم النسج، وقد بنيت تلك الجملة في سبك محكم متماسك، حيث كرر النفري عبارته: (وقال لي:)، كما أنه استعمل الفاء التي ربطت بين قوله: (أدنى علوم القرب أن ترى آثار نظري في كل شيء) وقوله: (يكون أغلب عليك من معرفتك به) فالفاء

(١) كتاب المواقف، (ص٢).

هنا عاطفة فيها معنى السببية؛ لأنها عطفت جملة، يقول المرادي عن الفاء: "وإن عَطفت جملة، أو صفة، دلت على السببية غالبًا، نحو: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾"(١)[جزء من الآية:١٥، سورة القصص]، كما أن الهاء في قوله: (من معرفتك به) تعود على لفظة: (شيء) في قوله: (في كل شيء) وفي عود الضمير ربط بين بنى الكلام، مما يجعل البناء التركيبي متماسكًا، ينادي أوله على آخره.

ثم يقول النفري: "وقال لي: القرب الذي تعرفه في القرب الذي أعرفه كمعرفتك في معرفتي"(٢). يقول: وقال لي: قربي منكَ مطلق، وقربك مني محصور في مرتبة معينة، وقربك المحصور في مرتبة بالنسبة لقربي المطلق كمعرفتك بالنسبة لمعرفتي.(٣)

وقد أتت عبارة النفري في سبك محكم، يقع في نفس المتلقي كالشيء الواحد، حيث بنى النفري عبارته على أسلوب التشبيه التمثيلي، فقد شبه القرب المطلق للحق . تعالى . من عبده والقرب المحصور للعبد، بمعرفة العبد المحصورة بالنسبة لمعرفة الله المطلقة، ووجه الشبه: وصف منتزع من متعدد، وهو: المفارقة بين أمرين أحدهما مطلق والآخر محصور. وأسلوب التشبيه مثل أسلوبًا محوريًا لعبارة النفري؛ حيث إنه جمع بين طرفي الصورة التشبيهية في وعاء واحد، كما أن العبارة بنيت على جملة اسمية، قوامها مسند إليه ومسند، وما أن تتلقى النفس صورة المسند إليه حتى تطلب المسند، وما أن يساق إليها حتى تسكن لهفتا، فالنفري هنا جعل الصورة التشبيهية تنتظم عبارته، كما جعل ابتناء العبارة على المسند إليه والمسند ينتظم

---

(١) الجنى الداني في حروف المعاني، للمرادي، (ص٦٤)، د/ فخر الدين قباوة، أ/ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ .

(٢) كتاب المواقف، (ص٢).

(٣) ينظر: شرح مواقف النفري، (ص٢٥وما بعدها).

العبارة كذلك، فالأسلوبان معًا تظاهرا على تحقيق سبك العبارة، كما أن التكرار كان روحًا تسري في بنية العبارة، فقد كرر النفري ألفاظ: (القرب، الذي، في، معرفة)، فضلًا عن ذلك التنوع في صيغتي المضارعة بين: (تعرفه، وأعرفه)، وفي التكرار ما يؤدي إلى سبك بنية العبارة، فتكرار اللبنات في العبارة وخاصة إذا كانت العبارة قصيرة، يجعل العبارة محكمة السبك، مترابطة الأجزاء، فالتكرار في اللبنات يؤدي إلى تكرار صور سمعية لا تزال تتكرر على الآذان مرة بعد مرة، حتى تصير بمنزلة الخيوط المتشابكة التي لا تنحل عقدتها، وذلك هو الكلام الذي صاغه مَن أوتي البلاغة وارتشف من كؤوس رضابها حتى الثمالة.

ثم يقول النفري: "وقال لي: لا بُعدي عرفت، ولا قربي عرفت، ولا وصفي كما وصفي عرفت"(١). يقول: وقال لي: إنك لم تَقْدُرْني حق قدري، فعرفانك بي منقوص، فلا بُعدي عرفت ولا قربي عرفت، ولا وصفي كما يليق بجلالي عرفت.(٢)

لقد خُتم كل من المقاطع الثلاثة بكلمة: (عرفت) فتكررت تلك الكلمة ثلاث مرات في العبارة، فتولدت عن ذلك موسيقى ذات نغمات رتيبة متطابقة، مثلت جوقة تلك النغمات إيقاعًا موسيقيًا خاصًا، مما ولَّد رحمًا بين أجزاء الكلام، تلك الرحم التي تسهم في سبك البنية التركيبة للكلام.

ثم يقول: "وقال لي: أنا القريب، لا كقرب الشيء من الشيء، وأنا البعيد، لا كبعد الشيء من الشيء"(٣).

في هذه العبارة يطالعنا النفري بجملتين موصولتين بالواو، وذلك للتوسط بين

---

(١) كتاب المواقف، (ص٢).

(٢) ينظر: شرح مواقف النفري، (ص٢٥وما بعدها).

(٣) كتاب المواقف، (ص٢).

الكمالين (كمال الانقطاع وكمال الاتصال)، حيث اتفقت الجملتان في الخبرية، لفظًا ومعنى، وفي ذلك الاتفاق بين الجملتين ما يقوي الآصرة بينهما، بل ويجعلهما تذوبان معًا، وهذا أمر له أثره في بناء الكلام، فشأن باني التركيب كالصَيْرَفي الذي يذيب المعادن ثم يسبكها سبيكة متماسكة، يقول الإمام عبد القاهر: "واعلمْ أنَّ مَثَلَ واضِعِ الكلام، مثَلُ مَنْ يأخذ قطعًا من الذهب أو الفضةِ، فيُذيبُ بعضَها في بعضٍ، حتى تَصيرَ قطعةً واحدةً."[١] كما أن النفري يطالعنا بالطباق بين: (القريب) و (البعيد) وكذلك بين: (قرب) و (بعد) وفي الطباق إبراز للمعنى وتجلية للمراد، كما أن في الطباق ما يلائم المقام، فإنه لما كان المقام يتناول إبراز الفارق بين قرب الله ـ تعالى ـ وقرب عباده، كان من الملائم لذلك المقام الطباق وهو: "الجمع بين المتضادين، أي: معنيين متقابلين في الجملة"[٢] فلا شك أن الجمع بين المتضادين في جملة ينقل مراد المتكلم، من قصد بيان التقابل بين أمرين، وفي ذلك ما يبرز قدر الله ـ تعالى ـ وأن قربه ـ سبحانه ـ لا يقارن بقرب العبد، فالرب رب والعبد عبد.

ومن صور السبك في العبارة ذلك التكرار في: (أنا – الشيء) حيث تكررت لفظة: (أنا) مرتين، كما تكررت لفظة: (الشيء) أربع مرات، وفي التكرار ما يقوي تماسك البنية التركيبية للعبارة، بل إن التكرار بمثابة خيوط متطابقة الألوان في نسيج واحد، فإذا ما نسج بيد صَناع كان له كبير الأثر في بناء العبارة.

---

(١) دلائل الإعجاز، (ص٤١٢).

(٢) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، (ص٥٧٢).

المبحث الثالث

بلاغة السبك في مقام موقف اقشعرار الجلود

ومن المقامات التي دعت النفري إلى أن يعتبر مع ما يؤدي به أصل المعنى المراد خصوصية السبك؛ مقامُ موقف اقشعرار الجلود، وفي ذلك المقام، أخذ النفري يبوح لنا بما انطوت عليه روحه من تأثر العبد السالك من شعور ينتج عن الأنس بالعبادة والذكر.

والقُشَعْرِيرة – كما جاء لسان العرب –: الرِّعْدَة واقْشِعْرارُ الجِلْدِ، وأخذتْه قُشَعْرِيرة، وَقَدِ اقْشَعَرَّ جلد الرجل اقْشِعْرارًا فهو مُقْشَعِرّ؛ ورجل مُتَقَشْعِرٌ: مُقْشَعِرّ، يقول الفراء فِي قوله تعالى:﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ [جزء من الآية:٢٣، سورة الزمر] قال: تَقْشَعِرُّ من آية العذاب، ثم تلين عند نزول آية الرحمة. وقال ابن الأَعرابي في قوله تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحدَهُ ٱشمَأَزَّت﴾ [جزء من الآية:٤٥، سورة الزمر]؛ أي: اقْشَعَرَّت؛ وقال غيره: نَفَرَتْ."[1] فالمادة يدور معناها حول: الرِعدة واقشعرار الجلد.

والحقيقة: أن اقشعرار الجلد قد يكون سببه عضويًا، وهذا لا شك أنه سبب غير مراد في كلام النفري، وإنما السبب المراد، "هو تأثر يقع للسالك من فرط الأنس بالعبادة خصوصًا الذكر، وهو حال من الأحوال التي يجدها السالكون"[2] فالعبد السالك في طريق ربه ـ سبحانه ـ كلما استشعر مقام الحق وعظمة جلاله، اقشعر جلده من خشية الله.

---

(١) لسان العرب، (٥/ ٩٥).

(٢) شرح مواقف النفري، (ص٤٢٧).

وفي مقام موقف اقشعرار الجلود، يقول النفري: "أوقفني في اقشعرار الجلود، وقال لي: هو من آثار نظري، وهو باب محضري. وقال لي: هو عن حكمي، لا عن حكم سواي، وهو عن حكم إقبالي عليك، لا عن حكم إقبالك عليّ."(١)

يقول: قال الله لي: اقشعرار الجلود ـ الذي هو تأثر يقع للعبد السالك ـ هو من آثار نظري، وهو باب حضوري. واقشعرار الجلود ناشئ عن قضائي لا عن قضاء سواي، وهو ناشئ عن قضائي بالإقبال عليك، لا عن إقبالك عليّ، فليس كل أحد يُقبل عليَّ يُؤتَي ذلك الحال (اقشعرار الجلود).(٢)

وقد استهل النفري كلامه بقوله: (أوقفني في) وذلك على عادته في مواقفه، ولا شك أن تكرار هذه العبارة، مما يقيم روابط الصلة بالسبك بين جميع مواقف النفري، وليس في التكرار ما يدعو إلى السآمة والملل؛ لأن النفري يصبغ كل مكرر بلون جديد غير مألوف للمتلقي، وذلك عن طريق تلك المعاني التي يسوقها في أعقاب تلك العبارة المكررة: (أوقفني في...وقال لي:).

هذا، والضمير: (هو) في قوله: (هو من آثار نظري) يعود على (اقشعرار الجلود)، وفي عود الضمير رباط يربط بين طرفي الكلام ويجمع بينهما، مما يجعلهما كالشيء الواحد. كما أن الضمير: (هو) في قوله: (هو باب محضري) يعود ـ كذلك ـ على (اقشعرار الجلود)، وهكذا تتوالى تلك الضمائر التي تعود على (اقشعرار الجلود) مما يقوي السبك بين العبارات، التي تشكل صورة النص وتربط بين أجزائه.

كما أن النفري وصل بالواو بين الجملتين: (هو من آثار نظري)، (هو باب محضري) وذلك لما بينهما من التوسط بين الكمالين(كمال الانقطاع وكمال الاتصال)،

---

(١) كتاب المواقف، (ص١٣٣).

(٢) ينظر: شرح مواقف النفري، (ص٤٢٧).

وقد سوغ ذلك الاتصال التناسب بينهما؛ لأنهما تتفقان في الخبرية لفظًا ومعنى، وهذا تناسب سوغ الوصل، وجعل كلتا الجملتين تذوب في الأخرى، حتى صارتا شيئًا واحدًا. كما أن بين لفظتي: (نظري)، (محضري) جناسًا ألَّف بين العبارتين، وقد أتى الجناس مطبوعًا، لا تكلف فيه، فلقد أرسل النفري المعنى، فاكتسى من الألفاظ ما يلائمه، فأتى الجناس بلا تصنُّع.

كما أن بناية قوله: (هو من آثار نظري) وقوله: (هو باب محضري) على إيجاز القصر فيه من السبك ما لا يخفى.

ثم يصل النفري بالواو، فيعطف قائلًا: (وقال لي:) فيكرر تلك العبارة التي يستفتح بها كل قول، فهي بمثابة تنبيه للمتلقي، وإيقاظ لوسائل التلقي لديه، كما أنها رابط قوي لكتاب المواقف كله؛ إذ إنها جملة تتكرر فتمد النص برافد قوي لسبك عرى الكلام وتماسكه. ثم يطالعنا بذلك الضمير: (هو) الذي يتكرر ويعود على مرجعه، وهو قوله: (اقشعرار الجلود)، فيصل أولًا بآخر.

ثم يقول: (عن حكمي، لا عن حكم سواي) فيأتي بالمسند: (عن حكمي) ليثبت به حقيقة، ثم يأتي بما يؤكد تلك الحقيقة، إذ يقول: (لا عن حكم سواي) وفي التضاد بين قوله: (عن حكمي) وقوله: (لا عن حكم سواي) ما يقوي سبك الكلام ويشد وثاقه، فلا شك أن التضاد جهة من جهات التناسب، فإن التناسب قد يكون بالتضاد؛ إذ التضاد علاقة معتبرة[1]. ثم يعطف النفري الكلام بالواو؛ للتوسط بين كمال الانقطاع وكمال الاتصال، بقوله: (وهو عن حكم إقبالي عليك، لا عن حكم إقبالك عليّ).

هذا، وفي تناسب تلك العبارة وما عُطفت عليه، بنية وتركيبًا؛ حيث بنيتا على نسق

(١) ينظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، (٢/ ٢١٠).

واحد، فالمسند إليه فيهما الضمير: (هو) والمسند فيهما شبه جملة، وقد أكد فيهما المسند المثبت بمؤكِّد مبدوء ب(لا) النافية. ومما قوى العلاقة بين الجملتين المتجاورتين، تلك الألفاظ التي تكررت فيهما، وهي: (هو – لا – عن – حكم – إقبال) ففي ذلك التكرار ما ذوَّب بنى الجملتين في وعاء واحد.

ثم يقول النفري: "وقال لي: هي علامة حكم ذكرى لك، لا علامة ذكركَ لي، وهي علامتي ودليلي، فاعتبر بها كل وَجْد وعقد، فإن أقامت في شيء فهو الحق، وإن فارقته فهو الباطل. وقال لي: هي ميزاني، فزن به، وهي معياري، فاعتبر به، وهي علامة اليقين، وهي علامة التحقيق."(١)

يقول: حال اقشعرار الجلود دليل ذكري لك أيها العبد، فاهتم بكل وجد(٢) وعقد(٣) تجدهما من آثار تلك الحال، ودوام تلك الحال دليل أنها حق، وإن لم تدم فاعلم أنها باطل.(٤)

النفري يُعيد الضمير هنا بالتأنيث: (هي) التي تعود على الحال التي هي اقشعرار الجلود، وفي التعبير بـ(هي) تلوين للأسلوب، ويستمد التلوين بعدًا دلاليًا؛ لأن ضميرين مختلفين يعودان على مرجع واحد، وهو: (اقشعرار الجلود) مرة بالتذكير على أنه: (الاقشعرار) ومرة بالتأنيث على أنها الحال. وفي ذلك التلوين ما يربط بين عرى

---

(١) كتاب المواقف، (ص١٣٣).

(٢) الوجد: "خشوع الروح عند مطالعة سر الحق" معجم مصطلحات الصوفية، د/ عبدالمنعم الحفني، (ص٢٦٤)، دار المسيرة – بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.

(٣) "عقد السر، هو: ما يعتقد العبد بقلبه بينه وبين الله ـ تعالى ـ أن يفعل كذا أو لا يفعل كذا" السابق، (ص١٨٥).

(٤) ينظر: شرح مواقف النفري، (ص٤٢٧).

الكلام، بل وينفي السآمة عن المتلقين، ويسهم – كذلك – في ترابط نسق الكلام وتماسك بناه.

ثم يطالعنا النفري بجملة مثبتة: (هي علامة حكم ذكري لك) وأخرى منفية: (لا علامة ذكركَ لي) وفي ذلك التضاد الحاصل بين الجملتين رباط وثيق بين الجملتين، ومن قوة تلك الصلة لا تقبل الجملتان رابطًا بينهما من حروف المعاني، وفي قوة تلك الصلة بالتضاد ما أغنى عن الروابط الأخرى. ثم يعطف على ما سبق بقوله: (وهي علامتي ودليلي) فيربط الجملة بسابقتها عن طريق الواو، كما يربط لفظة: (دليلي) بلفظة علامتي بالواو ـ كذلك ـ وفي تعاقب الربط بالواو ما جعل الكلام يخرج في سبك قوي، حتى يصير كالكلمة الواحدة، وتلك من أهم مزايا الكلام.

ثم يعطف النفري على ما سبق بالفاء، يقول: (فاعتبر بها كل وَجد وعقد) والفاء هنا تفيد الترتيب في المعنى، "والمراد بالترتيب في المعنى أن يكون المعطوف بها لاحقًا متصلًا"[1] وقد أتت الفاء في عبارة النفري تؤكد أن على العبد إذا اعترته حال اقشعرار الجلود، أن يحتشد لها، وأن يهتم بكل ما يعتريه من آثارها من الوجد والعقد؛ فهي حال لا يدركها إلا من اصطفاهم الله ـ تعالى ـ لها. ثم يُعقب النفري الفاء بغيرها، يقول: (فإن أقامت في شيء فهو الحق) وفي توالي الفاءات ما يربط بين عرى الكلام حتى يصير كالشيء الواحد.

وفي قوله: (فإن أقامت في شيء فهو الحق، وإن فارقته فهو الباطل) جملتان شرطيتان، وصلتا بالواو للتوسط بين كمال الانقطاع وكمال الاتصال؛ وذلك لاتفاق الجملتين في الخبرية لفظًا ومعنىً، فقد سوغ ذلك الجامع الوصل بينهما، وفي الوصل بين الجملتين ما جعلهما تذوبان معًا حتى صارتا بناءً تركيبيًا واحدًا، وهنا سبك

(١) الجنى الداني في حروف المعاني، (ص٦٣).

بالشرط وجزائه، وكذلك بوصل جملتي الشرط، يقول الإمام عبد القاهر: فـ"الشرط والجزاء جملتان، ولكنا نقول: إنَّ حكمَهما حكمُ جملة واحدة، من حيث دخل في الكلام معنًى يربط إحداهما بالأخرى، حتى صارت الجملة لذلك بمنزلة الاسم المفردِ في امتناع أن تحصل به الفائدة، فلو قلت: إن تأتني، وسكتَّ، لم تُفِدْ، كما لا تفيد إذا قلت: زيد، وسكتَّ، فلم تذكر اسمًا آخر ولا فعلًا، ولا كان منويًّا في النفس معلومًا من دليل الحال"(١).

ثم يقول النفري: (وقال لي: هي ميزاني، فزن به، وهي معياري فاعتبر به، وهي علامة اليقين، وهي علامة التحقيق) وهنا يطالعنا النفري بجمل قصيرة المبنى، يقول: (هي ميزاني، فزن به، وهي معياري، فاعتبر به، وهي علامة اليقين، وهي علامة التحقيق) وكل من تلك الجمل يسهم في أداء معنى جزئي، ثم تتعانق الجمل معًا؛ لتؤدي صورة لمعنى مكتمل. والإيجاز هنا إيجاز قصر، وهو أحد نوعي الإيجاز، وعنه يقول أبوهلال العسكري: "فالقصر تقليل الألفاظ، وتكثير المعاني"(٢)، وفي تعاقب الجمل المبنية على إيجاز القصر، ما يمثل وجهًا من وجوه السبك؛ لأن كل جملة منها تمثل لبنة في بنيان البنية التركيبية لتلك الجمل، فضلًا عن أن تلك الجمل وُصلت كلها بالواو، كما أن تكرار الألفاظ: (هي – به – علامة) بمثابة الرحم التي تمتد خلال تلك الجمل؛ لتشكل فيما بينها علاقة متشابكة، تقوى بنية التراكيب، وتجعلها تذوب حتى تصير كالشيء الواحد.

ثم يقول: "وقال لي: أبواب الرجاء فيها مفتوحة، وأبواب الثقة بي فيها مبشرة.

---

(١) أسرار البلاغة، الإمام/ عبد القاهر الجرجاني، تح/ محمود محمد شاكر، (ص١١١)، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، بدون تاريخ.

(٢) كتاب الصناعتين، (ص١٧٥).

وقال لي: لا طريق إليَّ إلا في محجتها[1]، ولا مسير إليَّ إلا في نورها. وقال لي: هي نور من أنوار المواصلة[2]، وهي نور من أنوار المواجهة، إذا بدا أباد ما سواه."[3]

يستهل النفري عبارته بما تكرر له في مواقفه، إذ يقول: (وقال لي:) وبعد أن يملأ النفس شوقًا لسماع مقالة الحق – إذ أوقفه في ساحة الخطاب، بعد أن هيأ قابليته للتلقي عن الله – يقول: (أبواب الرجاء فيها مفتوحة، وأبواب الثقة بي فيها مبشرة) فيقرن بين جملتين متناسبتين؛ فكلتاهما خبرية اسمية، كما أنهما وصلتا بالواو، وذلك لما بينهما من التوسط بين الكمالين (كمال الانقطاع وكمال الاتصال) فهما خبريتان لفظًا ومعنى، وفي وصلهما بالواو ما قوى العلاقة بينهما، فضلًا عن التكرار في قوله: (أبواب ـ فيها)، وما له من أثر في سبك البناء التركيبي.

ثم يقول: (وقال لي: لا طريق إليَّ إلا في محجتها، ولا مسير إليَّ إلا في نورها)، فيطالعنا بجملتين مقترنتين متناسبتين في البناء على أسلوب القصر؛ حيث بنيتا على القصر الذي طريقه النفي والاستثناء، وعلى الرغم من أن النفي والاستثناء أقوى طرق القصر، ولا يستعمل إلا في المقامات التي تحتاج إلى تأكيد قوي، فإن النفري قرن بهذا الأسلوب مثله، فأعقب النفي والاستثناء بنفي واستثناء آخر؛ لمزيد من توكيد المعنى، فلا طريق إلى الله ـ تعالى ـ إلا في جادة اقشعرار الجلود، بل إنها النور

---

(١) "الْمَحَجَّةُ: جَادَّةُ الطَّرِيقِ، وسُمِّيَت المَحَجَّةُ المسلوكَةُ جادّةً؛ لأَنّهَا ذَاتُ جُدّةٍ وجُدُود، وَهِي: طُرُقَاتُهَا وشُرُكُهَا المخطَّطَة فِي الأَرض." ينظر: مقاييس اللغة، (٣٠/٢)، وتاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، تح/ جماعة من المختصين، (٤٨٤/٧)، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، بدون تاريخ.

(٢) "يريد بالمواصلة: التوجه من السالك بعناية المسالك، والمواجهة كذلك." شرح مواقف النفري، (ص٤٢٨).

(٣) كتاب المواقف، (ص١٣٣).

الذي يضيئ، فلا مسير إلى الله ـ تعالى ـ إلا في نور اقشعرار الجلود، فهي الطريق إلى الله، وهي نور الطريق.

ولا شك أن الاقتران بين جملتين مبنيتين على القصر، فيه سبك لبنى الجملتين، فتبدوان ممتزجتين كأنهما جملة واحدة، فإذا ما أُلقيتا في رُوع المتلقين، ألقيتا دَفعة واحدة، فتكونان أكثر إمتاعًا وإقناعًا.

هذا، وفي وصل هاتين الجملتين بالواو، ما جعلهما ترتقيان في مدارج السبك حدًا بعيدًا.

ثم يستأنف النفري من جديد، فيقول: (وقال لي:) ويزيل عن النفس المتلقية الشغف بمعرفة القول، فيقول: (هي نور من أنوار المواصلة، وهي نور من أنوار المواجهة، إذا بدا أباد ما سواه)، لقد قرن النفري هنا ـ كذلك ـ بين هاتين الجملتين: الأولى: (هي نور من أنوار المواصلة). والثانية: (وهي نور من أنوار المواجهة) وكلتاهما خبرية اسمية، وفي ذلك التناسب من السبك ما يجعل كلتاهما تذوب في الأخرى، ومما يقوي ذلك السبك بين الجملتين، تلك الواو التي تشد وثاق السبك وتؤكد عليه، كذلك التكرار في ألفاظ: (هي – نور – من – أنوار). وفي قوله: (المواصلة – المواجهة) جناس ناقص، أسهم في رسم صورة السبك التي ظللت البناء التركيبي، فضلًا عن ذلك الضمير: (هي) الذي تكرر مرتين، حيث ورد في صدر الجملتين، وله مرجع واحد هو: (اقشعرار الجلود)، وفي عود الضمير: (هي) المتكرر على ذلك المرجع البعيد في الذكر، ما يؤكد على بروز خصوصية السبك في نص النفري، فالعود على المرجع البعيد فيه من قوة السبك، ما يجعل النص كله كالكل المجتمع، الذي ذاب في وعاء واحد، فانصهرت عناصره، وتداخلت لبناته، فأوله ينادي على آخره، وآخره يعانق أوله، فإذا ما تلقاه المتلقي معنىً واحدًا، مكتمل الخلق، مستوى الأجزاء، كان أكثر إمتاعًا للنفس، وإقناعًا للعقل.

ثم يقول النفري: (إذا بدا أباد ما سواه) وفي ذلك قيد طريقه الشرط، والشرط والجزاء جملتان، وحكمهما حكمُ جملة واحدة، من حيث دخل في الكلام معنًى يربط إحداهما بالأخرى، حتى صارتا معًا كالكلمة الواحدة.(١)

وفي جملتي الشرط والجواب: (إذا بدا)، و(أباد ما سواه) ضمير مستتر تقديره: (هو) يعود على لفظة: (نور) تلك التي وردت مرتين، مرة في قوله: (هي نور من أنوار المواصلة)، ومرة في قوله: (هي نور من أنوار المواجهة)، وفي عود الضميرين على مرجع مذكور مرتين، ما يقوي سبك الكلام ويجعله كالكل المجتمع، فخيوط الصلة تتخلل بنية الكلام؛ حتى تشد وثاق البناء التركيبي حتى يصير كمعدن انسبكت عناصره سبيكة متماسكة، لا يشذ عنها عنصر.

ومن مظاهر السبك الذي ظلل مباني التراكيب، ذلك الإيجاز الذي أسهم في سبك الكلام، وللإيجاز أثره في بناء التراكيب، فـ"من شروط الفصاحة والبلاغة: الإيجاز والاختصار وحذف فضول الكلام، حتى يعبر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة. وهذا الباب من أشهر دلائل الفصاحة وبلاغة الكلام عند أكثر الناس."(٢)

وهكذا أتت عبارات النفري في سبك محكم، متماسك العُرى، تتصايح عباراته، فتتردد أصداؤها في مطاوي النص، حتى يساق كالكل المجتمع، الذي يُلقى في خَلَد المتلقي كما لو أنه كلمة واحدة.

---

(١) ينظر: أسرار البلاغة، (ص١١١).

(٢) سر الفصاحة، (ص٢٠٥).

المبحث الرابع

بلاغة السبك في مقام موقف الرحمانية

من أبرز المقامات التي دعت النفري إلى أن يعتبر مع ما يؤدي به أصل المراد خصوصية السبك؛ مقام موقف الرحمانية، وتعني: الظهور بحقائق الأسماء والصفات، وهي بين ما يختص به الله ـ سبحانه وتعالى ـ في ذاته كالأسماء الذاتية، وبين ماله وجه إلى المخلوقات، كوصفه بالعالِم والقادر ونحوهما، مما له تعلق إلى الحقائق الوجودية، فالرحمانية: اسم جميع المراتب الحَقِّيَّة[١] دون الخَلقية، فالرحمانية أخص من الألوهية؛ لانفرادهما بما يتفرد به الحق ـ سبحانه .. والألوهية جميع الأحكام الحَقِّيَّة والخَلقية، فالرحمانية جمع بهذا الاعتبار أعز من الألوهية؛ لأنها عبارة عن: ظهور الذات في المراتب العليَّة، وتقدسها عن المراتب الدنية. والاسم الظاهر في المرتبة الرحمانية هو الرحمن. واختصاص هذه المرتبة بهذا الاسم؛ للرحمة الشاملة لكل المراتب الحَقِّيَّة والخَلقية؛ فإنه لظهورها في المراتب الحَقِّيَّة ظهرت المراتب الخَلقية، فصارت الرحمة عامة في كل الموجودات.[٢]

فالرحمانية وصف تفرد به الحق ـ تعالى ـ وهو وصف يتجلى في كل ما أوجبه الله ـ تعالى ـ على خلقه، وما أوجبه على نفسه، وفي جمع خلقه، فهو الرحمن.

وفي هذا المقام يقول النفري: "أوقفني في الرحمانية، وقال لي: هي وصفي وحدي. وقال: هي ما رفع حكم الذنب والعلم والوَجْد[٣]. وقال لي: ما بقي للخلاف أثر

---

(١) " قال ابن عربي: الحقُّ كل ما فُرض على العبد من جانب الله، وكل ما أوجبه الله على نفسه." معجم مصطلحات الصوفية، (ص٧٩).

(٢) ينظر: معجم مصطلحات الصوفية، (ص١١١).

(٣) الوجد: "خشوع الروح عند مطالعة سر الحق" معجم مصطلحات الصوفية، (ص٢٦٤) .

فرحمة، ومالم يبق له أثر فرحمانية. وقال لي: قف في خلافية التعرف، فوقفتُ فرأيتُه جهلًا، ثم عرفت فرأيت الجهل في معرفته، ولم أر المعرفة في الجهل به."[١]

يقول: إن الله ـ تعالى ـ أشهدني الرحمانية، وقال لي: هي وصفي وحدي، وقال لي: هي التي أغفر بها لعبادي، فهي ترفع الذنب، كما ترفع العلم القاضي بثبوت الذنب، وكذلك ترفع الوجد؛ إذ هو باب من أبواب المعرفة. وقال لي: الخلاف رحمة، وترك الخلاف رحمانية. وقال لي: قف وقوف خلافة، فشهدتُ أن التعرف جهل، ثم عرفتُ الحق ـ تعالى ـ فرأيت ذلك الجهل المذكور داخلًا في معرفتي له ـ تعالى ـ؛ إذ بإثباتي أنه جهل عرفته ـ تعالى ـ فقد رأيت الجهل في معرفته، ولم أرَ المعرفة في الجهل بأنه جهل.[٢]

النفري كعادته في البوح بمواجيده في كتابه المواقف، يستهل كلامه هنا بما اعتاد في مواقفه، فيقول: (أوقفني في الرحمانية) ثم يربط هذه الجملة بالتي تليها، فيقول: (وقال لي: هي وصفي وحدي) ففصل بين: (وقال لي) وقوله: (هي وصفي وحدي) وذلك لشبه كمال الاتصال؛ فالجملة الأولى أثارت في النفس المتلقية سؤالًا تردد في نواحيها، عن مضمون ذلك القول الذي قيل للنفري، وفي ذلك من سبك العبارتين وارتباط كلتيهما بجارتها ما لا يخفى، وعندئذ تقوى الصلة وتتأكد الرابطة.

ثم يعطف على ما سبق، فيقول: (وقال: هي ما رفع حكم الذنب والعلم والوجد) وقد فصل النفري بين جملة: (وقال) وجملة: (هي ما رفع حكم الذنب والعلم والوجد) وذلك لقوة الرابطة التي جعلت الجملتين تنسبكان معًا حتى صارتا كالشيء الواحد، فبين الجملتين شبه كمال اتصال. أما جملة: (هي ما رفع حكم الذنب والعلم والوجد)،

---

(١) كتاب المواقف، (ص٨).

(٢) ينظر: شرح مواقف النفري، (ص٨٥وما بعدها).

فقد أتت في سبك محكم؛ حيث استهلت بالضمير: (هي) العائد على الرحمانية، وفي ذلك إيجاز يقوي بنية السبك، وبعد المسند إليه: (هي) أتى بالمسند: (ما رفع حكم الذنب والعلم والوجد) من خلال تلك الجملة التي ذابت لبناتها في سبك آخذ بعضه بعناق بعض؛ فقد جمع فيها بين أمور بينها رحم يؤلف بينها، إذ يقول: الرحمانية أرفع بها الذنب، كما أرفع بها علم العبد بثبوت الذنب، كما أرفع بها الوجد، والذي هو خشوع الروح، وهو باب من أبواب المعرفة المقتضية للعقاب. وهكذا جمع النفري بين أمور عدة بينها جهة من التناسب "وهو جمع المتكلم أمرًا مع ما يناسبه لا بالتضاد، أي: تكون المناسبة بغير المضادة"[١]، والتناسب قد يكون ظاهرًا وقد يكون خفيًا[٢]. والأمور التي جمع بينها النفري: (الذنب ـ العلم ـ الوجد) بينها تناسب خفي، فلا يزال العقل راكضًا يبحث عن تلك الخيوط الدلالية الجامعة بين تلك المفردات حتى يصل إلى جهة جامعة.

وأرى: أن ذلك التناسب الخفي، له أثر أقوى من التناسب الظاهر في سبك العبارة وتماسك بنيتها؛ لأن إدراك جهة التناسب بعد لَأْيٍ ونَصَب أدعى لأن تصير العبارة أقوى سبكًا، فكما أن سبك المعادن لا يتم إلا بعد أن تذيبها النار، فتكون بعد ذلك أقوى سبكًا، فكذلك اللبنات كلما تسلط عليها الفكر وتناولها العقل؛ إدراكًا لجهة التناسب بينها، كانت أقوى سبكًا وأشد تماسكًا.

ثم يعطف على ما سبق، فيقول: (وقال لي: ما بقي للخلاف أثر فرحمة، وما لم يبق له أثر فرحمانية) ففي قوله: (وقال لي: ما بقي للخلاف أثر فرحمة) فصل بين الجملتين لقوة العلاقة بينهما ـ كما أوضحت فيما سبق ـ وعبارة النفري: (ما بقي

---

(١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، (٢/ ٢٣٤).

(٢) ينظر: الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، (٣٨٢/٢).

للخلاف أثر فرحمة، وما لم يبق له أثر فرحمانية) أتت في جملتين معطوفتين بالواو، الأولى: مثبتة، والثانية: منفية، وقد تكرر في الجملتين قوله: (ما ـ أثر)، فضلًا عن: (بقي ـ يبقى) وما بينهما من الاشتقاق[١] من جذر لغوي واحد، يقول ابن فارس: "(بَقِيَ) الباءُ والقافُ والياءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ الدَّوامُ"[٢]، وكذلك: (رحمة ـ رحمانية) فكلتاهما من أصل واحد "(رَحِمَ) الراء والحاء والميم: أصل واحد يدل على الرقة والعطف والرأفة. يقال من ذلك رحمه يرحمه، إذا رَقَّ له وَتَعَطَّف عليه. والرُّحم والمرحمة والرحمة بمعنًى. والرحم: علاقة القرابة، ثم سميت رحم الأنثى رَحِمًا من هذا؛ لأن منها ما يكون ما يُرْحَمُ وَيُرَقُّ له من وَلَدٍ"[٣]. كما أن بين الجملتين تناسب في المقدار، فالجملتان متناسبتان مقدرًا، وهذا ـ لا شك ـ يقوي سبك الكلام ويشد بنايته. كما أن كلتا الجملتين بنيتا على أسلوب الشرط الذي أداته (ما)، والشرط مبناه: شرط وجوابه، وفي ابتناء جملة الشرط على ذلك ما يجعل طرفيها ينسبكان في وعاء واحد، فيصيران كالشيء الواحد والكل المجتمع. فـ(ما) الشرطية ربطت بين القيد (الشرط) والمقيد (الجزاء)، وألَّفت بينهما في نسق تركيبي متماسك البناء، يأخذ بعضه بعِناق بعض، حتى إذا ما فاضت به نفس النفري أتى الكلام كالكل المجتمع، فوقع في نفوس المتلقين دفقة واحدة، فآتى غايته، وحقق بُغيته، وأدرك هدفه المنشود إمتاعًا وإقناعًا وتأثيرًا.

هذا، وعبارة: "وقال لي: قف في خلافية التعرف، فوقفت فرأيته جهلًا، ثم عرفت

---

(١) "الاشتقاق: نزع لفظٍ من آخر، بشرط مناسبتهما معنىً وتركيبًا، ومغايرتهما في الصيغة." كتاب التعريفات، للشريف الجرجاني، (ص٢٧)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولى١٩٨٣م.

(٢) مقاييس اللغة، (١/ ٢٧٦).

(٣) مقاييس اللغة، (٢/ ٤٩٨).

فرأيت الجهل في معرفته، ولم أر المعرفة في الجهل به."[١]؛ بنيت على الترقي[٢]، والترقي يأتي في معنىً واحد، ولكن المتكلم يظل يَصَّعَد فيه ويرتقي في معارجه، حتى يترقى من درجة إلى غيرها، وفي ذلك ما يحقق سبك العبارة، فالمتكلم يترقى مع المتكلم في معنىً واحد، وفي ذلك المعنى الواحد ما يجعل الكلام متماسك العرى، كأنه لبنة واحدة.

كما أن تلك اللبنات التي تحدَّرت من أصل لغوي واحد على سبيل الاشتقاق، أسهمت في تحقيق ذلك السبك، يقول: (التعرف . عرفت . معرفته . المعرفة) كذلك لفظتي: (قف . فوقفت) والاشتقاق توسُّع في الأداء اللغوي، وفي ذلك إمتاع وإقناع للمتلقي، فالاشتقاق بمثابة إلحاح على المعنى من خلال اللغة، وفي اشتمال العبارة على ألفاظ يجمعها رحم من ذلك الأصل اللغوي الذي تفرع عنه الاشتقاق؛ ما يجعل العبارة تنسبك في سبيكة واحدة متماسكة، كأنما هي لبنة واحدة، حتى إذا ما أُلقيت في رُوع المتلقي كانت شيئًا واحدًا.

فضلًا عن ذلك التكرار للفظة: (الجهل) وما يحمله من تأكيد على المعنى، وتقوية للبناء التركيبي للكلام، وشدِّ عراه، وجمع أجزائه، فلا شك أن اللفظة عندما تتكرر مرة بعد مرة تؤثر في تماسك البنية التركيبية للكلام. كما أن الطباق بين قوله: (الجهل) وقوله: (المعرفة)، أثمر سبكًا لبنية الكلام، فالكلمة عندما يذكر ضدها في إثرها، تستدعي النفس المتلقية علاقة الضد بين اللفظتين، وهذا من طرق تحقق السبك في البنية التركيبية.

---

(١) كتاب المواقف، (ص٨).

(٢) "الترقي: وهو أن يذكر معنى، ثم يردف بأبلغ منه، كقولك: (عالم نحرير وشجاع باسل)." عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، (٣١٩/٢).

فضلًا عن تلك الروابط التي ألَّفت بين الجمل، فـ(الواو) في قوله: (وقال لي) ربطت هذه الجملة بما قبلها، كذلك (الفاء) في قوله: (فوقفت فرأيته جهلًا) تلك التي ربطت جواب الطلب بما قبله، و(ثم) في قوله: (ثم عرفت) و(الفاء) في قوله: (فرأيت الجهل في معرفته) و(الواو) في قوله: (ولم أر المعرفة في الجهل به) فكل تلك الأدوات ربطت أجزاء الكلام، وجمعتها في بناء تركيبي يأخذ بعضه بعناق بعض.

والواقع أن سر خلود النص في عالم الإبداع "إنما هو هذه الروابط والصلات، وما هذه الروابط والصلات إلا عمل العقل في اللغة؛ فالعقل هو الذي يحدث تلك المشابك، وتلك الروابط، ولا يصير الكلام شكلًا لغويًا إلا بهذه الروابط؛ فهذه الروابط هي الكلام، وهي البلاغة والبيان، وهي عقل الإنسان وقلبه وهمومه وفكره وخواطره، وكل ما يتحرك به لسانه."[١]

ثم يقول النفري: "وقال لي: من استخلفتُه لم أسوه على رؤيتي، بشرط يجدني إن وجده ويفقدني إن فقده. وقال لي: إن استخلفتك شققت لك شقًا من الرحمانية، فكنتَ أرحمَ بالمرء من نفسه، وأشهدتُك بمبلغ كل قائل فسبقتَه إلى غايته، فرآكَ كل أحد عنده، ولم ترَ أحدًا عندك. وقال لي: إن استخلفتُك جعلتُ غضبك من غضبي، فلم ترأف بذي البشرية، ولم تَتَعطَّف على الجنسية."[٢]

يقول: من قام في مقام خلافتي لم أقهره على رؤيتي، وهو لا يفقدني أبدًا، وكونه يجدني هو من كونه يجد ذاته، وهو لا يفقد ذاته إذ ذاك. وقال لي: إن أقمتُك في مقام خلاف الرحمانية، فستكون أرحم بالمرء من نفسه. ولكون مقام الرحمانية مهيمنًا على

---

(١) مدخل إلى كتابي عبد القاهر، د/ محمد أبو موسى، (ص٢٣٤)، مكتبة وهبة، ط الأولي، ١٤١٨هـ.

(٢) كتاب المواقف، (ص٨).

كل مقام، وهو مقامك، ففيه تشهد مبلغ كل قائل، بل وتسبقه، ولم تجد صاحب مقام إلا وهو دونك. وقال لي: إذا استخلفتك جعلت غضبك لي إذا انتُهِكت حرماتي، فتنتقم لي بها. وفي قوله: "ولم ينعطف على الجنسية" إشارة إلى أن صاحب هذا المقام غير مجانس للبشر؛ لأنه إذا ما غضب وانتقم لله جاوز مقام الوقوف في الرحمانية.(١)

يستهل النفري عبارته تلك بأسلوب الشرط، الذي طريقه: (مَنْ)، يقول: "مَنْ استخلفتُه لم أسوه على رؤيتي، بشرط يجدني إن وجده ويفقدني إن فقده"(٢) عبارة النفري هنا بنيت على أسلوب الشرط، فبين أيدينا ثلاثة أساليب شرطية، الأول: (مَنْ استخلفتُه لم أسوه على رؤيتي)، والثاني: (يجدني إن وجده)، والثالث: (ويفقدني إن فقده)، وقد أتى الأسلوب الأول على أصله، أداة الشرط ثم فعله ثم جوابه، أما الثاني والثالث، فأتيا على خلاف الأصل، حيث تقدم الجواب على أداة الشرط وفعله؛ تعجيلًا بالمسرة في الثاني، وترهيبًا في الثالث.

وفي أسلوب الشرط تقييد للفعل، يقول الخطيب عن تقييد الفعل: "وأما تقييده بالشرط: فلاعتبارات لا تُعْرَف إلا بمعرفة ما بين أدواته من التفصيل"(٣). وأصل الأسلوب الشرطي جملتان أَلَّفت بينهما أداة الشرط، وأزالت ما بينهما من قطيعة، فـ"الشرط والجزاء جملتان، ولكنا نقول: إنّ حكمَهما حكمُ جملة واحدة، من حيث دخل في الكلام معنًى يربط إحداهما بالأخرى، حتى صارت الجملة لذلك بمنزلة الاسم المفردِ في امتناع أن تحصل به الفائدة، فلو قلت: إن تأتني، وسكتَّ، لم تُفِدْ، كما لا تفيد إذا قلت: زيد، وسكتَّ، فلم تذكر اسمًا آخر ولا فعلًا، ولا كان منويًّا في النفس معلومًا من

(١) ينظر: شرح مواقف النفري، (ص٦٠وما بعدها).
(٢) كتاب المواقف، (ص٨).
(٣) الإيضاح في علوم البلاغة، (٢/ ١١٦).

دليل الحال"[1]. وفي ذلك ما يؤكد على بلاغة أسلوب الشرط في سوق المعاني، إنه يحقق سبك أجزاء الكلام وتداخلها حتى تصير شيئًا لا يمكن فصل أجزائه، فإذا ما سيق للمتلقي استقر في نفسه وتبوأ منزلًا راسخًا في وجدانه، وهنا تتأتى البلاغة وتتحقق غاياتها من الإمتاع والإقناع.

ويمضى النفري في البوح بمواجيده، فيقول: "وقال لي: إنْ استخلفتكَ شققتُ لك شقًا من الرحمانية، فكنتَ أرحمَ بالمرء من نفسه، وأشهدتُك بمبلغِ كل قائل فسبقتَه إلى غايته، فرآكَ كل أحد عنده، ولم ترَ أحدًا عندك."[2] فيبني كلامه على أسلوب الشرط بـ(إنْ)، يقول: (إنْ استخلفتكَ شققتُ لك شقًا من الرحمانية) وفي ابتناء الكلام على الشرط سبك لجملتين: إحداهما: جملة الشرط، والثانية: جملة الجواب. فـ"الأسلوب الشرطي يمتاز بربطه بين أجزاء الكلام ربطًا ملاحَظًا فيه ترتُّب المسبب على السبب، فإذا ذكرتَ أداة الشرط وأردفتَ بفعل الشرط تشوقت النفس إلى ذكر ما سيكون، فإذا ذكِر الجواب بعد هذه الإثارة، وهذا التشويق تمكن أيما تمكن"[3] ولذا فالعلاقة بين الشرط وجوابه علاقة الامتزاج والتداخل، فعن طريقهما تذوب الجملتان معًا حتى تصيرا شيئًا واحدًا، ومما تعانق مع الشرط في إفادة السبك، ذلك الاشتقاق في قوله: (شققت ـ شقًا) .

ثم يعطف النفري على جملة الشرط بالفاء، فيقول: (فكنتَ أرحمَ بالمرء من نفسه) والفاء عطفت الكلام وسبكت أجزاءه، فضلًا عما أثمرته دلالة الفاء من معنى التعقيب والسرعة، يقول المرادي: "ومعناها التعقيب. فإذا قلت: قام زيد فعمرو، دلت

---

(١) أسرار البلاغة، (ص١١١).

(٢) كتاب المواقف، (ص٨).

(٣)خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، (٢٠٨/١).

على أن قيام عمرو بعد زيد، بلا مهلة، فتشارك ثم في إفادة الترتيب، وتفارقها في أنها تفيد الاتصال، وثم تفيد الانفصال"[١] وفي دلالة الفاء وما تؤديه من التعقيب بلا مهلة، ما يشد وثاق البنية التركيبية للعبارة، فبها تري جملة في إثر أخرى، مما يربط الثانية بالأولى، فلا يكاد المتلقي ينتهي من إدراك معنى الأولى، ويذوق لذتها، حتى يرى المتكلم يُثَنِّي بالثانية، وبها تقوى الآصرة وتتأكد العلاقة.

ويمضي النفري في رحلته مع موقف الرحمانية، فيعطف على ما سبق بالواو فيقول: "وأشهدتُك بمبلغِ كل قائل" ثم يعطف بالفاء، فيقول: (فسبقتَه إلى غايته)، وكذلك التي تليها، يقول: (فرآكَ كل أحد عنده) ثم يصل مرة أخرى بالواو، فيقول: (ولم ترَ أحدًا عندك) والذي يتأكد من خلال اعتبار النفري لحروف المعاني التي استعملها للربط بين عرى الكلام؛ أنه كان ذا ذائقة بيانية عالية في إدراك دلالات تلك الحروف وما بينها من فروق، فكان يستعمل كلًا منها في موضعه.

ثم يقول: "وقال لي: إنْ استخلفتُك جعلتُ غضبكَ من غضبي، فلم ترأفْ بذي البشرية، ولم تتَعطَّفْ على الجنسية."[٢] فيمضي النفري متخذًا من الأسلوب الشرطي سبيلًا للبوح بأصداء عالمه الروحي. والشرط قوله: (إن استخلفتُك)، والجزاء قوله: (جعلت غضبك من غضبي)، ومع أسلوب الشرط يأتي ذلك التكرار للفظة: (غضب) وذلك قوله: (غضبك ـ غضبي)، ثم يعطف النفري على الشرط بالفاء فيقول: (فلم ترأف بذي البشرية) فيعطف بالفاء التي تعطى معنى التعقيب والسرعة، وهذا ما يقتضيه المقام؛ لأن المعنى: إذا استخلفتُك جعلت غضبك لي إذا انتُهِكت حرماتي،

(١) الجنى الداني في حروف المعاني، (ص٦١).

(٢) كتاب المواقف، (ص٨).

فتنتقم لي بها.[١] فسرعة الانتقام لله ـ تعالى ـ إذا انتهكت حرماته، هي ذلك الأمر الذي اعتبره النفري مع ما يؤدي به أصل المراد، كما يعطف بالواو في قوله: (لم ترأف بذي البشرية ولم تنعطف على الجنسية) وذلك في موضع اقتضى العطف بالواو؛ فالمقام يقتضي اعتبار الواو التي تفيد المصاحبة، فـ"الواو تكون عطفًا، ولا دليل فيها على أن الأول قبل الثاني"[٢] فالنفري من خلال الواو يقول: إن الأمرين(عدم الرأفة بذي البشرية، وعدم الانعطاف على الجنسية) يحصلان معًا متصاحبين بلا ترتيب بينهما، فالنفس الإنسانية تموج بهما معًا.

وهكذا أتت عبارات النفري في سبك محكم، يأخذ بعضه بعناق بعض، ينادي أوله على آخره، وآخره على أوله، ولقوة ذلك السبك وإحكام وثاقه، لا تستطيع أن تنزع من بنايته جملة ولا كلمة ولا حرفًا، وإلا بقي مكانها شاغرًا يدل علي ما نزع من غراسه، وذلك سمت الكلام الجيد، الذي يخلد في التراث الأدبي الرفيع.

---

(١) ينظر: شرح مواقف النفري، (ص٦١).

(٢) حروف المعاني والصفات، للزجاجي، (ص٣٦) تح/ علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

الخاتمـــــة

وفيها أهم **نتائج البحث**، وهي كما يلي:

- من اليسير على الإنسان أن يكتب ما تراه عيناه وتسمعه أذناه، بينما يصعب عليه كتابة ما يراه بروحه وقلبه وفؤاده، ولعل هذا ما حدا بالنفري إلى القول بعبارته الخالدة: (إذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة) فاتساع الرؤية يجعل العبارة ضيقة عاجزة عن النهوض بالمعاني التي تتزاحم على النفس التي ارتقت في معارج الوصول. ولا شك أن الآداب التي تكتب على هذا المنوال لها من الخصوصيات البلاغية والسمات البيانية ما يجعلها عالَمًا وحدها ونسيجًا بذاتها؛ فهي نمط صعب لا نكاد نراه إلا عند قلة من مسطري الآداب، وكاتبي أصداء الأرواح.
- مواقف النفري أتت في نظم فريد، فهي نمط يمثل نسيجًا لا نكاد نراه في عالم الأدب.
- إن المعاني التي تتدفق بها نفس المتكلم، لا بد لها من سبك يشد أجزاءها ويجمع شتاتها؛ حتى تستوي خلقًا نصيًا متماسك الأجزاء، يأخذ بعضه بعناق بعض.
- إن وحدة المعنى في كل مقام من مقامات مواقف النفري، كانت بمثابة أم رؤوم تضم البنية التركيبية للنص، فلا ترى جملة جاوزت سبك الكلام.
- لقد كان السبك روحًا تسري في نصوص النفري؛ فأول الكلام متصل بآخره، وآخره ينادي على أوله، إنه كلام آخذ بعناق بعضه، مشدود بوَثاق السبك.
- في مواقف النفري، جاوز السبك الجملة والجمل والمقطوعة والنص إلى نصوص المواقف كلها، فعلى امتداد مواقفه رأينا وسائل السبك المتنوعة.

- لقوة السبك في عبارات النفري، لا تستطيع أن تنزع من بنايته جملة ولا كلمة ولا حرفًا، وإلا بقي مكانها شاغرًا يدل علي ما نزع من غراسه، وذلك سمت الكلام الجيد، الذي يخلد في التراث الأدبي الرفيع.
- التكرار بدا وسيلة بارزة في سبك كلام النفري، حيث تولدت موسيقى ذات نغمات رتيبة ترددت في أنحاء العبارة، فكل جزء من أجزاء العبارة تصدر منه نغمة إيقاعية رتيبة، ثم مثلت جوقة تلك النغمات إيقاعًا موسيقيًا رتيبًا، مما ولَّد رحمًا بين أجزاء الكلام، تلك الرحم التي تسهم في سبك البنية التركيبة للكلام.
- لعل من أبرز الوسائل التي حققت السبك في نصوص المواقف، إيجاز القصر الذي كان سمة بارزة في المواقف من بدايتها إلى نهايتها.
- في مواقف النفري تعانقت ألوان السبك، فطالعنا السبك الصوتي والمعجمي والنحوي.
- في مواقف النفري تتوالي صور السبك، تلك التي تؤلف فيما بينها جوقة مؤتلفة الأنغام، تثمر سبكًا محكمًا، ذابت عناصره وتداخلت حتى صارت شيئًا واحدًا.
- سبك عبارات النفري ثمرة لفكر عميق ورؤية نافذة؛ فكما أن سبك المعادن لا يتم إلا بعد أن تذيبها النار، فتكون بعد ذلك أقوى سبكًا، فكذلك اللبنات كلما تسلط عليها الفكر وتناولها العقل؛ إدراكًا لجهة التناسب بينها، كانت أقوى سبكًا وأشد تماسكًا.

ثَبَت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أساس البلاغة، للزمخشري، تح/ محمد باسل، دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى، ١٩٩٨م.
- أسرار البلاغة، الإمام/ عبد القاهر الجرجاني، تح/ محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، بدون تاريخ.
- الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، عصام الدين الحنفي، تح. د/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، بدون تاريخ.
- إعجاز القرآن، للباقلاني، تح/ السيد صقر، دار المعارف – القاهرة، ط الخامسة، ١٩٩٧م.
- الأعلام، للزركلي، ط دار العلم للملايين، الخامسة عشر، ١٤٣١هـ.
- الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي، لعبدالهادي الفكيكي، منشورات دار النمير للنشر والتوزيع – دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، تح. د/ محمد عبدالمنعم خفاجي، ط دار الجيل – بيروت، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ.
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، للشيخ/ عبدالمتعال الصعيدي، مكتبة الآداب – القاهرة، ط السابعة عشرة، ٢٠٠٥م.
- البلاغة العالية – علم المعاني، للشيخ/ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، الطبعة الثانية، ١٩٩١م.
- البلاغة النبوية، د/ محمد رجب البيومي، ط الدار المصرية اللبنانية، الطبعة

الأولى، ٢٠٠٨م.

- البيان والتبيين، للجاحظ، دار ومكتبة الهلال – بيروت، ١٤٢٣هـ.
- تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، تح/ جماعة من المختصين، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت، بدون تاريخ.
- التعبير البياني . رؤية بلاغية نقدية، د/ شفيع السيد، ط دار غريب . القاهرة، ٢٠٠٦م.
- توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، لابن ناصر الدين، تح/ محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الأولى، ١٩٩٣م.
- الجنى الداني في حروف المعاني، للمرادي، د/ فخر الدين قباوة ، أ/ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ .
- حاشية الدسوقي على مختصر المعاني، لمحمد بن عرفة الدسوقي، تح/ عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية – بيروت، بدون تاريخ.
- حروف المعاني والصفات، للزجاجي، تح/ علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.
- الحيوان، للجاحظ، تح/ عبد السلام هارون، ط دار الجيل – بيروت، ١٩٩٦م.
- خصائص التراكيب – دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط السابعة، بدون تاريخ.

- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د/عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، ط١، ١٩٩٢م.
- دراسات في النص الشعري، د/ عبده بدوي، ط دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، بدون تاريخ.
- دلائل الإعجاز، للإمام/ عبدالقاهر الجرجاني، تح/ محمود شاكر، ط المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط الثالثة، ١٤١٣هـ.
- رأيت الله، د/ مصطفى محمود، ط دار المعارف – القاهرة، بدون تاريخ.
- سر الفصاحة، لابن سنان، دار الكتب العلمية، ط الأولى، ١٤٠٢هـ.
- شرح مواقف النفري، للتلمساني، تح/ جمال المرزوقي، مركز المحروسة، ط١، ١٩٩٧م.
- شرح مواقف النفري، للتلمساني، تح/ د.عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولى،٢٠٠٧م.
- الصورة الشعرية، ساسين عساف، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت، ط١، ١٩٨٢م.
- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للعلوي، المكتبة العصرية – بيروت، ط الأولى، ١٤٢٣هـ.
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين السبكي، تح. د/ عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق، تح/ محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط الخامسة، ١٤٠١هـ .

- عن بناء القصيدة العربية الحديثة، د/ على عشري زايد، مكتبة الآداب، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٨م.
- كتاب التعريفات، للشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولى١٩٨٣م.
- كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تح/ علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – بيروت، ١٤١٩هـ.
- كتاب المواقف، للنفري، تح/ أرثر يوحنا أربري، ط دار الكتب المصرية، نشر مكتبة المتنبي . القاهرة، ١٩٣٤م.
- لسان العرب، لابن منظور، تح/ عبد الله الكبير وأصحابه، ط دار المعارف، بدون تاريخ.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، تح/ أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، بدون تاريخ.
- المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، تح/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الأولى،١٤٢١هـ.
- مدخل إلى كتابي عبد القاهر، د/ محمد أبوموسى، مكتبة وهبة، ط الأولي، ١٤١٨هـ.
- معجم اصطلاحات الصوفية، للكاشاني، تح. د/ عبدالعال شاهين، ط دار المنار – القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.
- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى – بيروت، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٣١هـ.

- معجم مصطلحات الصوفية، د/ عبدالمنعم الحفني، دار المسيرة – بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
- مقاييس اللغة، لابن فارس، تح/ عبد السلام هارون، ط دار الفكر، ١٩٧٩م.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لحازم القرطاجني، تح/ محمد الحبيب الخوجة، ط دار الغرب الإسلامي – بيروت، بدون تاريخ.
- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، للآمدي، تح/ السيد صقر، دار المعارف، ط الرابعة، بدون تاريخ.

ثَبَت الموضوعات

الموضوع	صفحة
الملخص باللغة العربية.	٢٥٧٢
الملخص باللغة الإنجليزية.	٢٥٧٣
مقدمة.	٢٥٧٤
تمهيـــد: النِّفَّري، وكتابه، وتحرير المصطلح.	٢٥٧٨
المبحث الأول: بلاغة السبك في مقام موقف العز.	٢٥٨٨
المبحث الثاني: بلاغة السبك في مقام موقف القرب.	٢٦٠٢
المبحث الثالث: بلاغة السبك في مقام موقف اقشعرار الجلود.	٢٦١١
المبحث الرابع: بلاغة السبك في مقام موقف الرحمانية.	٢٦٢٠
الخاتمة.	٢٦٣٠
ثَبَت المصادر والمراجع.	٢٦٣٢
ثَبَت الموضوعات.	٢٦٣٧